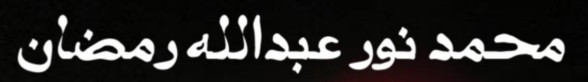
الهروب وراء الظلام

رواية


محمد نور عبدالله رمضان



الهروب وراء الظلام رواية محمد نور عبدالله رمضان



الهروب وراء الظلام

(رواية)

محمد نور عبدالله رمضان

الطبعة الأولى

2013م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
2013

رمضان، محمد نور
الهروب وراء الظلام، محمد نور عبدالله رمضان._ عمان: دار الجنان للنشروالتوزيع 2013.
(   )ص
ر.أ: 2013).
الواصفات

- أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
- يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الترقيم الدولي (ردمك) ISBN 978-9957-551-

هاتف: 0096264659891 **dar_jenan@yahoo.com**

للتواصل مع المؤلف
بريد إليكتروني: **moh_nour1@hotmail.com**
fa-m2006@hotmail.com
تلفون : 00249 911887741

رقم الإيداع لدى المصنفات السودانية: 271 / 2012

الهروب وراء الظلام

(رواية)

محمد نور عبدالله رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ صدق

الله العظيم

التقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا وحبيبنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

من دواعي سروري وعظيم فخري أن أقدم رواية (الهروب وراء الظلام) للكاتب / محمد نور عبدالله رمضان – الذي قدم رواية (نظرات بائسة) و صوّر فيها نظرة البؤس في نظرات العيون الحزينة وقدم رواية (أيام خالدة) و صوّر فيها ومزج بهجة الحياة التي يمر بها الإنسان السعيد وقدم بعض الروايات الأخرى و صوّر فيها حياة الإنسان في هذه الأيام التي يختزن فيها البؤس والابتئاس بين جوانحه ويعيش وسط المجتمع وهو يؤكد للأفراد الذين يتعاملون معه أنه سعيد وقد أعجبني الأستاذ / محمد نور ـ بقفزاته السريعة وخطواته الأسرع في إبداعاته الأدبية ، ويبهجني كل الإبهاج أن أقول أن هذه الرواية (الهروب وراء الظلام) بدون شك أو ريب فيها حقيقة من الحقائق الإبداعية التي تجذب القُراء للاستمرار في قراءتها والتي توصل إلى مضمون الرواية والتي يستفيد منها القارئ كرواية سودانية تصوّر حياة مجتمع المدينة التي يرتدي ثوب الكذب والنفاق والانحلال الخلقي الذي يبحر فيه مجتمع اليوم بكل صوره العديدة.

وإحقاقاً للحق أن كاتب رواية الهروب وراء الظلام قد اجتهد وصوّر حياة مجتمع اليوم بين فجوات حروف وسطور هذه الرواية ، وأنني وطيد الأمل أن يستمر الكاتب في كتاباته ولا يتوقف لأن كتاباته توحي بمستقبل لكاتب روائي كبير في عالم الرواية وسيكون له نبراس يُضيء به المبدعين الآخرين في القريب العاجل بإذن الله وأن هذه الرواية دليل عرض حياة مجتمع يعيش من الفينة إلى الفينة بصورة حقيقة صادقة تدلل على ما كان يمارسه الصادق وسلوى خلف ظلال الظلام الداكن بصورة الرومانسية التي أطلت على أفق صفحات الحب وامتزجت بالنرجسية التي فاح عبيرها وامتزجت بلمحات العناصر العاطفية.

حاول الكاتب أن يأتي بكلمات لغوية عالية على فهم القارئ العادي ، عليه نأمل أن يكتب على حسب مستوى القارئ لكي يستطيع بسهولة إبراز صورة صادقة للقارئ ويجذبه إلى متابعة سطور الرواية وأتمنى للكاتب التقدم والازدهار .

❋ الأستاذ / أمين محمد زين محمد

كاتب صحفي وروائي

الإهداء

- إلى كُلِ متابعي كتاباتي الروائية .
- إلى الأستاذ الشاعر / صلاح قلاديمة .
- إلى الروائية الواعدة المهندسة / توحيد هارون علي .

أهديهم هذا العمل وأتمنى أن ينال قبولهم .

المؤلف / محمد نور عبدالله

الجريمة

بصعوبة بالغة استطاع ترويض الكلمات المستأسدة النـافرة والتي حاول مراراً أن يجعلها أسيرة طائعة ولكنها كانت تتمـرد دونما سبب غير أن لسانه المربوط لم يتمكن منها فتجد الفرصـة مواتية وتهرب وفي أحيان كثيرة تتوارى.

لم يدر بأن السائل الأبيض الشفاف الذي يرشفه من الكأس اللامع كل يوم هو السبب الرئيس في كل ما يحدث له . مرات عديدة عقد مقارنـة بـين حـالتي الـوعي واللاوعـي الـتي كـان يعيشهما في يومٍ واحد ، إلا أنه لم يـر فـرق شاسـع سـوى أن الأولى كانت تشعره بالملل والكآبة والفراغ المقيت أما الأخـيرة فكانت تغمره بالسعادة والنشوة.

أيام وليال عديدة أغلق علـى نفسـه غرفتـه الضـيقة الخانقـة وذلك ليضع حداً للضياع الذي يعيشه والشعور بالذنب الذي يغزوه حيثُ أن غرفته تلك لا تسع إلا لسرير صـغير وطاولـة متهالكة يضع عليها ذلك السائل اللعين ويرابط أعلاها كـوب صغير لا هو بالنظيف ولا المتسخ.

لم يكن له أصدقاء يخـالطهم غـير الـذين يقابلـهم في جلسـة الكؤوس النتنة لذا كان يشعر بالرتابة عندما ينفـرد بذاتـه وأن

الكلمات التي تتمركز في نفسه تظل داخل سجنها الكبير ، شفاهه التي تنطقها تظل مغلقة تجف العبارات على أعتابها فكان يفتح فاه من وقت لآخر ليتأكد من أنه ما زال قادراً على الحديث.

بيد أنه لم يصمد طويلاً أمام المغريات التي تتراءى له فتلك المرأة التي تعد الخمر تجعلهم يتسابقون للقدوم إلى دارها المشئومة ، فهي توزع لهم ابتسامتها الساحرة بالتساوي كتوزيعها لكؤوس الخمر . الكل يظن بأنها أصبحت ملك فؤاده وخليلته وحده فكانوا يدفعون لها ما يجمعون من مال دونما حساب بل يضعون كل ما يملكون بين يديها وعندما تفيد أي منهم بأن ما يملك من نقود قد نفد لا يتردد في أن يحصل على أموال جديدة بأي أسلوب سواء أكان بالعمل الشاق المُضني تحت هجير الشمس الحارقة أو زمهرير الشتاء القارس أو بالسرقة أو الاحتيال .

جمعت تلك الفاجرة أموالاً دون وجه حق وجنا هؤلاء الأغبياء السراب . وذات يوم وبينما كان الصادق وحيداً سارحاً بخياله وراء الأفق البعيد لمعت فكرة ذكية داخل عقله

وقرر أن ينفذها وأعد العُدة لذلك وحشد أفكـاره المبعثـرة ولم يبقى أمامه إلا الزمن المناسب فكان يعيش صراعاً قوياً.

سلوى بائعة الخمر الملعونة هي الأخرى كانت تخطط لتهرب بعيداً عن هؤلاء السكارى الـذين خـدعتهم وسـلبت أمـوالهم وعقولهم ولا ينقصها إلا الوقت الملائم أيضاً . القلـق يشـعرها بالخوف .. يشعرها بأن شيئاً مجهول سيحدث ولكن مـا هـو ؟ ثمة معطيات تلوح في الأفق وتنذر بـأن هنـاك قنبلـة مطمـورة ستنفجر وأن دويها سيعم كافة الأرجاء . و لكن متى؟

كانت أعينهم ترصـدها حيـثُ أنهـم شـعروا بأنهـا لم تعـد تعاملهم تلك المعاملة اللائقة ، ضحكاتها الرنانة خمدت بمجرد علمها أن لا فائدة ترتجى منهم وأن أجسادهم التي تتفجر طاقة وحيوية غدت أشباح غير قادرة على السير ناهيك العمل .

رحل الليل شامتاً هازئا وجاء الفجر ضاحكاً منتشـيا حيـثُ جمعت سلوى ما خف وزنه وثقل ثمنه وأصبحت تنتظر الوقت الملائم بلهفة ، أما الصادق فكان الغيظ يملأ قلبه والشر يقـدح في عينيه والغضب يعتمل داخل صدره فكان هو الآخـر علـى موعد مع بزوغ شمس الصباح وما أن شاهد ضوء الدنيا يغزو الكون سار بخطوات وئيـدة إلى دارهـا يحـدوه أمـل أن يجـدها

وحيدة ويطالبها بكل جنيه أخذته منه وإن رفضت الانصياع إلى طلبه أخذ حقه بالقوة.

في لحظات وجد نفسه أمام دارها فكان البـاب مفتوحـاً إلى منتصفه ودون أن يـؤذن لـه ولج إلى حيـث تسـكن ووجـدها تتأهب للمغادرة ودون مقدمات دفعها للداخل بعنف ثم قـال في نبرة كلها تهديد :

ـ أريد مـالي الـذي أخذتيـه مـني في لحظـة غيـاب عقلـي ، لا تغادري دارك إلا بعد أن تدفعيه لي كاملاً . إلا أنها كانت أكثر عناداً وأنكرت أنها رأته يوماً وأمام هذا الجحود لم يدر إلا بيده تمتد إلى جيب جلبابه المهـترئ الممـزق وتخـرج سـكيناً طويلـة فكأنما قوى خارقة انسكبت داخله ومنحته الطاقة اللا محـدودة ولم يتوانى وأخرجهـا مـن غمـدها وغرزهـا في صـدرها بقـوة ودفعها لتسقط إلا أن جسمها الضخم ظل ثابتاً ويديها ممسـكة بمقبض السكين وفمها يفُتح ويغُلق لا إرادياً تريد أن تقول شيئاً ولكنها لا تستطيع وهو ينظر إليها مشدوهاً ولما رأى علامـات الموت غزت نفسها حمل متاعها الذي أعدته للرحيل وهرب لا يلوي على شيء وهو خائف يترقب فكر أن يستقل عربـة مـن داخل القرية إلا أنه عدّل عن رأيه وقرر أن يعبر النهر وينطلـق

من هناك وسار إليه بخطوات متثاقلة فكلما تقدم خطوة إلى الأمام كان يحس بأن أقدامه تجره خطوتين للوراء . وأن قلبه الثابت بدأ يخفق بعنف وعيونه الجاحظة خرجت من محاجرها وحالة من الذهول قد طغت عليه ونوبة من الهياج قد زارته وسيطرت على قلبه وعقله .

الهروب الكبير

ألفى النهر وهو مضطرب كانت هناك حبيبات من الدماء قد تناثرت على جلبابه وحذائه لم يرها في حينها كان جل اهتمامه أن يخرج من المنطقة دون أن يكتشف أحدهم الجريمة الشنيعة التي اقترفها ولما دنا من الشاطئ كان الماء ساكناً هادئاً إلا من صوت مجداف صياد ينثر شباكه هنا وهناك عله يظفر بسمكة يكمم بها أفواه أطفاله الجياع ، وما أن رآه صاح بصوته المبحوح طالباً من الصيّاد أن يوافيه بسرعة ليحمله إلى الضفة الأخرى إلا أن الصيّاد ظل صامتاً ولم يجبه بالنفي أو الإيجاب وهو يجر الشبكة بهدوء وقوة معاً حيثُ تعلق بها شيء ثقيل وهو يحاول جاهداً أن لا يدع هذا الشيء يفلت منه وهو الآخر(المتعلق بالشبكة) لا يود أن يكون لقمة سائغة سهلة فكان صراعاً عنيفاً يدور بينهما .

****

تقاطرت أعداد غفيرة من الأهالي عندما سمعوا صراخ أحد زبائن سلوى والذي جاء باكراً لاحتساء كأس الصباح ولما دخل منزلها تفاجأ بها مستلقية على ظهرها وسكينة مغروزة في

صدرها ونزيف حاد يخرج من جوفها ووجهها الذي يشع نوراً وبريقاً أصبح شاحباً مُصفرا وهي تـئن بقـوة تعـيش لحظـات حرجة بين الحياة والموت ، أنفاسها تصعد وتهبط تفتح فمها ثم تغلقه بصعوبة تحاول جاهدة أن تقول شيئاً ولكنها غـير قـادرة فكأنما جدار من الصمت مشيداً داخل نفسها.

تطوع أحدهم وأتصل بالشرطة والتي جاءت في وقت وجيـز رغم وعورة الطريق وبعُد المسافة عن مكـان الحادثـة . كانـت سـيارة الإسـعاف تتـبعهم تتهـادى بـين الـبطء والاسـتعجال وصوت انذارها المميز يخترق آذان الـراكبين علـى السـيارات الأخرى والراجلين بعنف، وبعد المسح المبدئي ورسـم مسـرح الجريمة استطاع أحد المسعفين أن يخرج السكين ويوقف نزيـف الدم المتدفق وأفادهم بأنها لم تمت وأخذوها إلى المستشفى على جناح السرعة ، أما الزبون الذي عثـر عليهـا أخذتـه الشـرطة كشـاهد عيـان لاسـتجوابه والوقـوف علـى حيثيـات القضـية وأبعادها.

****

بعد عناء بدني وذهني خارق استطاع الصـيّاد الداهيـة أن يسيطر على السمكة الماكرة وينتصر عليها ويرفعها عن الماء التي كانت ترثي حالها وتشتاق إليها ووضـعها علـى قاربـه وهو يبتسم ملء فيه فقد مـر عليـه زمنـاً طـويلاً لم يـر فيـه سمكة عِجل بهذه الضخامة والتفت إلى الصـادق وقـال في انشراح :

ـ ما بك تصيح ؟

وأضاف في سعادة :

كنت ستفسد عليّ كل شيء.

ولو لم أكن فطن لفقدت هذا الصيد الثمين الـذي ظفـرت به .

قال الصـادق في تـودد وأشـرعة الأمـل تـتراءى لـه وهـي تنطوي بسرعة:

ـ أرجوك خذني معك إلى الضفة الأخرى .

وقال الصيّاد في عناد وهو يشد حبـل المسـتحيلات البـالي الممزق:

ـ لدي شباك كثيرة نثرتها في الماء ويجـب أن أطـوف عليهـا جميعاً قبل أن أذهب إلى حيثُ تريد .

وقال الصادق وهو بين المتفائل والمتشائم :
ـ ألا يكفيك هذا الصيد الذي فزت به .
وأردف في رجاء:
لا تكن طماع وأقنع بما قسمه الله لك من رزق.
وقال الصيّاد محاولاً قطع الطريق على الصادق :
ـ أنا لا أعمل في حمل العابرين عليك أن تذهب إلى المُشرع حيثُ يتوقف (البنطون) سيقلك إلى الضفة الأخرى.
وأضاف الصادق وهو يستجدي الصيّاد :
ـ سأدفع لك ما تريد فقد تأخرت . الجدال لا طائل منه .
وأضاف الصيّاد في تحدي :
ـ لا تصعد قاربي هذا إلا إذا دفعت لي عشرة جنيهات .
بحث الصادق في حاجيات سلوى ورأي رزمة من النقود أخرج منها عشرة جنيهات وأشار بها إلى الصيّاد ثم قال:
ـ هذا ما طلبته.
نظر الصيّاد إلى الصادق ملياً ثم قال مبتسماً كأنما ملك الدنيا كلها :
ـ كان عليك أن تدفع جنيهاً واحداً للبنطون وتدخر التسع جنيهات الباقية.

ورد الصادق بقوله :
ـ الزمن .. الزمن أهم من المال .
تناول الصيّاد الورقة ذات العشرة جنيهات ووضعها في قاع جيبه المبتل وداس عليها بأصابعه الجافة وتأكد بأنها لا ترى الشمس ثانية ثم طلب من الصادق أن يصعد وبعد ذلـك غرز مجدافه في الطين ودفع قاربه بقـوة و شـق عبـاب المـاء الساكن كما الصاروخ المنطلق من منصته ولما توغل وسـط النهر خفق قلبه الثابـت حينمـا رأى دمـاء تلطـخ جلبـاب الصادق وحذائه وسأله في دهشة وبصوتٍ مخنوق :
لماذا ترتجف أقدامك هكذا ؟
وأضاف في وجل:
وما سر الدماء المتناثرة على جلبابك وحذائك ؟
لابد أن وراءك خطبٌ عظيم .
قال الصـادق بصـوت متحشـرج بعـد أن ابتسـم ابتسـامة مصطنعة:
ـ حدث شجار عنيف بين مجموعة من الشباب واستخدموا فيها العصي وسالت دماؤهم غزيرة وقـد قمـتُ بتفـريقهم بعد مشقة ومجهود جبار .

وأضاف وهو يرمق الصيّاد بنظرة حائرة :

ـ شباب هذا الزمن يختلفون كثيراً عنا ، كنا في السابق نوقر الكبير ونضع له مكانته ، أما الآن فـلا احـترام ولا تقـدير اختفى كل شيء ولم يعد الحاضر كالماضي .

صمت الصيّاد رغم أنه لم يقنع بالأسباب والحجج الواهيـة التي ساقها الصادق وظلا هكذا حتى وصلا الشـاطئ وآب الصياد إلى عمله في فرحة . أما الصادق فقـد ولج السـوق ليبدأ رحلة الهروب من هناك.

رحلة البحث

ثلاث ساعات مرت على سلوى وحالتها في تحسن رغم أن فمها ما زال ينفتح ويغلق لا إرادياً ، أشارت لأحـدهم أن يقترب منها ولما دنا نطقت بكلمات مليئة بالأسى موغلة في الحزن وهي تتلعثم قائلة :

ـ ال.. صا.. دق. ثم صمتت.

ونطق الرجل مذعوراً :

ـ الصادق فعل بك هذا .

وأومأت برأسها موافقة ما ذهب إليه وصرح للمحتشـدين بذلك ولما سمعوا حديثه غفلت مجموعـة مـنهم عائـدة إلى البلـدة للبحـث عـن الصـادق والقـبض عليـه وتسـليمه للشرطة إلا أنهم لم يقفوا له علـى أثـر وطـافوا علـى كـل الأماكن التي يتردد عليها ولم يجنوا إلا التعب وأخيراً وبعـد أن أضناهم الأرق هداهم تفكيرهم إلى طريق النهر وجهـة الخروج الثانية من المنطقة وبالفعـل توجهـوا ولمـا ابتعـدوا قليلاً عن البلدة وجدوا أثار خطواته المتباعدة تعـدو عـدوا وهرولوا وأملهم أن يجدوه قبل أن يعبر النهر، رآهم الصيّاد

الذي ما زال يعيش فرحة غامرة حيث حصل على مبلـغ لم يكن يحلم به ووفق في الإمساك بسمكة ضخمة ترقد وسط قاربه يائسة قانطة ولما اقترب جمعهم الذي يربو على عشرة رجال أو يزيد قال في فزع :

ـ ما بكم ؟

قال الذي يتقدمهم وصوته شبه غائب :

ـ ألم تر رجـل قصـير أصـلع نحيـف الجسـم ملابسـه باليـة متسخة مر من هنا ؟

تردد الصيّاد لثوانٍ وتحسس الجنيهات القابعة داخـل جيبـه ثم قال مضطرباً:

ـ ما به ؟

صاح آخر في غضب :

ـ هل رأيته أم لا ؟

أراد الصيّاد أن ينكر إلا أن ضميره النائم اسـتيقظ ونطـق قائلا:ً

ـ نعم رأيته واستحلفني بالله أن أقله وحملته معي إلى الضفة الأخرى لأنه كان في عُجالـة ولا يريـد أن ينتظـر البنطـون

الذي يجمع عدد كبير من الناس ثم يتحرك ولم يقل لهم بأن الصادق نقده عشرة جنيهات نظير الخدمة التي قدمها له .

وأضاف الصيّاد في استغراب :

ـ وهل فعل شيئاً ؟

قال آخر:

ـ لقد طعن هذا المعتوه امرأة وهي الآن في المستشفى تعيش لحظات عصيبة فهي أقرب للموت من الحياة .

تذكر الصيّاد الدماء التي رآها على جلبابه وحذائه والتي أثارت شكوكه وأيقن بأن من حمله لم يكن إلا مُجرما قاتلاً ولكنه أخفى المعلومة عنهم كما أخفى أمر الجنيهات ثم قال في حيرة محاولاً إبعادهم من أمامه حتى يستطيع أن يهرب هو الآخر :

ـ لا أحسبه ذهب بعيداً فلو كان قاربي يتسع لكم لحملتكم إلى الضفة الأخرى ولكن عليكم أن تذهبوا لمكان توقف البنطون.

كان مكان توقف البنطون شبه خالي والأشخاص الذين ينتظرونه يعيشون لحظات من الضيق والتذمر واستفسروا من أحدهم وأفادهم بأنه معطل وأن الميكانيكي الذي جيء

به لتحديد العطل وإصلاحه لم يستطع أن يفعـل شـيئا وأن الميكانيكي الذي يقوم بإصلاحه في السابق طـريح الفـراش يعاني المرض.

قرر اثنان منهمـا أن يعـودا إلى صـاحب القـارب الصـغير ليقلهما وعلى البقية الانتظـار، إلا أن صـاحب القـارب لم يصدق عينيه فلحظة انسحابهم من أمامـه اختفـى بسـرعة البرق بعد أن نما لعلمه أنه حمل سفاح ولكيلا يجلب لنفسـه الكثير من المتاعب نأى بنفسه بعيداً وحمل سمكته العملاقة على كتفه ومجدافه بيده وسحب قاربه بعيداً عـن الشـاطئ ووضعه بين العشرات من القوارب المتوقفة واختفى وسط زحام الأحياء الشعبية المكتظة.

الأزمة

بعد عبور الصادق للنهر شعر بشيء من الطمأنينة وسار حتى وصل سوق المدينة وأشترى جلباباً جديداً وعمامة ناصعة البياض وسروالاً طويلاً وحذاءاً من الجلد الفاخر وعاد ثانية إلى النهر وخلع ملابسه المتعفنة الملطخة بالدماء وحذاءه القديم وربطهما على حجر كبير كما أخذ النقود من الكيس الذي يخص سلوى وقذف بقية الأشياء في الماء ثم سبح خلفها لمسافة وعاد وارتدى ملابسه الجديدة ، المرة الأولى التي يحس فيها بهيبته وحسن مظهره .

بعد فراغه من الاحتياطات الاحترازية عاد إلى السوق للمرة الثانية ليبدأ رحلة الهروب ثانية . ولحظة سيره بحذر لمح أحد رفقاء الكأس يعبر أمامه داهمه الخوف بقوة وقال وهو يرتعد :

ـ لو التفت لرآن .

لماذا جاء إلى هنا ؟

يبدو انه يبحث عني كما يبحث كل أهل البلد الآن . بالطبع ستكون سلوى قد فارقت الحياة ، وبينما هو في

جداله مع نفسه رأي الصيـاد يمـر مـن أمامـه وهـو يحمـل سمكته وآخر يساومه لشرائها وهو يقول :

ـ تسعون ألف جنيه ولا تريد أن تبيعها أتحسـبها خـروف . فإذا تركتها حتى منتصف النهار ستتعفن وتفوح منها رائحة نفاذة ويبتعد عنك الناس كما يبتعدون عن الجيفة النتنة .

سمع صوت الصيّاد يقول:

ـ إذا كنت تملك مائة ألف جنيه سوف أبيعها لك وإلا فـلا تزعجني.

تعجب الصادق وقال يخاطب نفسه :

ـ يا له من جشع تدفع له تسعون ألف جنيه ويرفضها فلـو عملت شهراً كاملاً لما ادخرت هذا المبلغ فلمـاذا لا اعمـل صياد؟

دنا الصادق من الصيّاد محاولاً مطالبته بالتسع جنيهات التي أخذها منه ويذكره بأنه لم يدفعها له إلا في ساعة غفلة منـه وعليه أن يأخذ جنيهـاً واحـداً ويـرد لـه البـاقي ولمـا رأى نظرات الصيّاد النارية تخترق جسده غير رأيه وانسحب من

أمامه بهدوء فقد رأى فيه الصيّاد ملامح الرجل الذي حمله إلا أنه شك في الملابس التي يرتديها لذلك لم يسأله.

****

استطاع الميكانيكي بعد عناء ومشقة أن يحـدد العطـل وقـام بإصلاحه لحظتها كان النهار قد انتصف والشمس البـاردة قـد زادت حرارتهـا ، واسـتقل الجميـع البنطـون وهـم سـاخطون وعبروا النهر وهم قانطون فالفترة الزمنيـة الـتي تـأخروا فيهـا كافية للمجرم بأن يبتعد ويرحل بعيداً عن المنطقة.

محاسبة النفس

زم الصادق شفتيه في ضجر وثورة من التوجس قد احتوته وقلق شارد قد تملكه وقلبه الصلب اهتز بعنف وقال وهو يناجي نفسه في ملامة :

ـ ما كان لي أن أفعل ذلك فإذا قُدر لهذه المسكينة وفارقت الحياة سيكون مصيري السجن وربما الإعدام إن قُبض علي بالتأكيد هم يبحثون عني الآن لابد أنهم اقتحموا منزلي ثم قبض صدره ودقات قلبه تكاد تُسمع من على البعد وواصل هواجسه المخيفة وقال :

ـ إذا انتبه أحدهم ونظر أعلى الباب سوف يرى قصاصة الورق التي تحتوي على عنواني كاملاً ومكان أهلي وأرقام تلفوناتهم وضعتها تحوطاً في حالة حدوث أي مكروه لي وها أنا قد فعلت المكروه بيدي ينبغي أن أعود ليلاً لآخذ تلك الورقة اللعينة حتى أقطع آخر خيط يتشبثون به ثم عاد وطرد هذه الفكرة المتداعية من رأسه المتهالك .

النهار انتصف والشمس اللاهبة قد توسطت كبد السماء والهواء الحار اللافح قد ازداد سخونة ، الجموع التي

عبرت النهر انتشـرت في السـوق بسـهولة ويسـر وركـزت بحثها على موقف المواصلات واستفسروا عن محـلات بيـع التذاكر وعن اسمه ولم يجدوه في (المنفستو) واستقر رأيهـم على أنه قام بتغييره فمن السذاجة أن يظـل يطـارده نفـس الاسم الذي اقترف به الجريمة النكراء وعندما لم يحصلوا له على أثر دلفوا إلى المطعم لتكميم أفـواههم ومـلأ بطـونهم الخاوية ، لحهم الصادق لحظة مروره بجانب المطعم ولحسن حظه كانوا منشـغلين بطلبـاتهم المتعارضـة هـذا يرغـب في وجبة فول وآخر لا يرغب إلا في كبده ضأن نصف مستوية وثالث لا يرغب إلا في كباب وآخرون صامتون كأن الأمر لا يهمهم يريدون فقط أن يملئون بطونهم

انسـحب إلى الـوراء في حـذر وضـاقت عليـه الأرض بمـا رحبت فكلما ذهب في طريق تقابل مع مجموعة من النـاس وتوقع أن يعرفـه أحـدهم .. تخيـل الأصـفاد بـين يديـه .. تراءت له ظلمة الحبس الانفرادي ووحشة الغرفـة الضـيقة وظلمتها الحالكة.. شبح السـجان اللئـيم الـذي لا يعـرف قلبه الرحمة وليس لديه إلا لغة الأوامر ينفـذها بحـذافيرها عندما يتلقاها من رؤسائه .. الضـحكة والكلمـة الحلـوة لم

تُدون أبداً في قاموس حياته ولغة البشاشة وأسلوب اللين لم يكتب أعلى جبينه ، فالحرية التي ينعم بها الآن و بالمجان ولا يدفع مقابلها شيء قد يكون ثمنها باهظ جداً بعد قليل وربما غابت عنه إلى الأبد وأمست الأسئلة تحاصره من كل جهة فكلما هرب منها لحقت به .. أقدامه التي كانت تتحرك طليقة أضحت كأنها مكبلة فكلما حاول أن يندفع إلى الأمام خذلته وتعثرت .

المفاجأة

لم يمضي بعيداً عنهم فإذا به وجهاً لوجه مع أحد أبناء البلدة القادمين إليها بعد رحلة غياب امتدت قرابة الستين تقابلت أعينهم ولم تكن أمامه حلول بديلة ، أما أن يطلق ساقيه للريح أو يواجه الضيف ويسلم عليه ويعرف ما يدور بخُلده فاختار الخيار الثاني والأصعب وسلم عليه بحرارة وِسأله عن البلدة وعن أهلها وكان الصادق يجيب على أسئلته مضطرباً وهو يلتفت يمنة ويسرة ولم يكن الضيف يعلم شيئاً عن الجُرم الشنيع الذي ارتكبه وتجاذبا أطراف الحديث لعُدة دقائق واستأذن منه الصادق بعد ذلك وأوهمه بأنه يريد أن يشتري بعض الأغراض من السوق وعليه أن يذهب وسوف يلتقيا في البلدة ليكملا ما بدآه من حديث.

ما لفت نظر الضيف هو أن الصادق يرتدي ملابس جديدة ومعروف عنه منذ زمن بعيد أن هيئته غير مرتبه وملابسه قديمة متسخة تعجب من هذا التحول المفاجئ وفي عقله سكنت الحيرة واستوطنت الريبة.

بعد أن استأذن الصادق من الضيف تأكد لـه فيمـا لا يـدع مجالاً للشك بأنه سيلتقي بهم إذا مر جوار المطعم ومـن المؤكـد بأنه سيخبرهـم بأنه قابله منذ لحظات وسيدلهم على خط السير الذي سلكه وستكون وقعته سوداء إذا شاهدوه .

****

بدأت الأنفاس الشاردة تعود رويداً رويدا إلى رئـتي سـلوى بائعة الخمر وأن حياتها التي أضحت غاب قوسين أو أدني من الانهيار عادت إليها وأن لسانها المربوط بدأ ينطق بحديث غـير مفهوم وأن أطرافهـا المشـلولة دب فيهـا شـيء مـن النشـاط ، استبشر المرافقون لها خيراً وحمـدوا الله علـى نجاتهـا وتجاوزهـا مرحلة الخطر التي عاشتها لعُدة ساعات وقد طمأنهم الطبيـب المعالج بأن السكين التي اخترقت صـدرها لم تصـل إلى مواقـع الخطورة فيـه وإلا لكانـت في عـداد الأمـوات حيـث أن رأس السكين الحاد كان على بعد مليمترات من قلبها ، وأن المعجزة الإلهية قد تدخلت وأنقذت حياتها ولولا ذلك لسـكنت بـاطن الأرض منذ الصباح ولحقت بمن سبقوها إلى الدار العامرة .

سار الضيف في اتجاه المطعم وراودته فكرة تناول وجبته قبل أن يعبر النهر فربما تباطأ البنطون والذي دائما مـا يجعـل أحـد

الطرفين ضحية خاصة منتصف النهار فإذا كان في الضفة الشرقية فإنه يظل لفترة طويلة حتى يجتمع أكبر عدد من الركاب ثم يتحرك . وكذلك إذا كان في الضفة الغربية .

وعندما ولج المطعم وجد الكثير من أهالي المنطقة في داخله على غير العادة وسلموا عليه وتفقدوا أحواله وجلس بينهم وشاركهم مائدتهم العامرة بكل الأصناف والغريب في الأمر بأنه لم يسألهم عن سبب تواجدهم ومن جانبهم لم يفصحوا له عن شئ إلا بعد أن فرغوا من تناول الطعام وذهبوا لرشف أكواب الشاي في المقهى المجاور فباغتهم بسؤاله :

ـ إن شاء الله خير أرى أن زيارتكم للمدينة غير عادية؟ .

ورد أحدهم غاضباً :

ـ من أين يأتي الخير طالما أن المنطقة أصبحت مرتعاً خصباً لشاربي الخمر وطالبي النزوات العابرة ومغترفي الجرائم البشعة.

قال الضيف في ذهول :

ـ ماذا حدث ؟

ورد آخر :

ـ سلوى بائعة الخمر .. ثم توقف عن الحديث وعاد إليه ثانية بنبرة أكثر حزناً:

ربما تكون قد فارقت الحياة .

قال مندهشاً :

ـ هل تناولت جرعة كبيرة منه ؟

وقال أحدهم :

ـ الصادق غدر بها وطعنها وهرب .

قال محتاراً :

ـ الصادق القصير الأصلع ؟

نعم .. وهل يوجد غيره يرتكب مثل هذه الحماقات .

قفز الضيف من مجلسه واستطرد قائلاً :

ـ لقد قابلته ووقفت معه قبل مجيئي إليكم في هذا الشارع وسألته عن البلدة وعن أهلها وأفادني بأن كل شيء على ما يرام وقد شاهدت علامات الارتباك بادية على وجهه بالرغم من أنه حاول أن يخفيها عني فكان يرتجف ويهتز اهتزازا سيروا في هذا الطريق أدركوه حتى لا يهرب بعيداً أمسكوا بالخائن الماكر وانطلقوا جميعهم خلفه وتركوا أكواب الشاي التي طلبوها منتصبة أعلى المناضد في عزة وكبرياء تنتظر من يرشفها كما تركوا المقهى وسط دهشة الزبائن الذين لم يعرفوا السر الغامض الذي دعا هذا الجمع إلى التفرق في لحظة واحدة.

أخيراً أفصحت سلوى وأخرجت ما في جوفها ونطقت قائلة :

ـ الصادق على حق عندما طعنني .. الموت أفضل لي من هـذه الحياة الذليلة التي أعيشها فقد استغللته شـر اسـتغلال ونهبـت أمواله وأموال زملاؤه دونما تأنيب للضمير .. هذه الحيـاة الـتي أحياها مليئة بالزيف والخداع .. محشوة بالأباطيل والمحرمات ثم التفتت إليهم وقالت وهي تتثاءب :

ـ أين الصادق ؟

أريد أن أراه الآن وأطلب منه أن يسامحني و أرد له مـا أخذتـه منه أخرجوه من السجن . هذا جزاء صنيعي .. أطلبوا منهم أن يطلقوا سراحه اليوم قبل الغد ، ثم توقفت فجأة عن الحـديث ورشفت من كوب الماء قليلاً ونظـرت إلى مـن حولهـا بـتمعن وقالت بلهجة مغايرة :

ـ هذا المجرم أراد أن يقتلني ويأخذ أموالي الـتي جمعتهـا بكـدي وعرق جبيني فأنا أقوى مما يتصور سأجعله يركع أمـامي ذلـيلاً صاغراً .. يبدو أنه لم يعرف قيمتي حتى الآن .. أنا لم أكشر عن أنياب الشر حتى هذه اللحظة .

ثم عادت إلى مضجعها وأنفاسها تتلاحق ووضعت رأسها على الوسادة وخلدت للنوم مما جعل المتواجدين معها يـدخلون في حيرة ويتساءلون في قلق :

ـ هل جُنت ؟

أما ماذا أصابها؟

وقال أحدهم :

ـ عندما أنصتنا إليها وهي تعترف حسبناها تكّفر عـن سـيئاتها وتمحو ماضيها الآثم ولم تمض غير ثوان فـإذا بهـا تـتغير كليـاً وتتحدث بلغة كلها وعيد ربما أصابها شيء في عقلها .

الوكر النتن

بعد أن ودع الصادق الضيف ورآه يسير في اتجاه المطعم أيقن بأن أمره سينكشف وأنهم سوف يهبوا للقبض عليه لذلك قرر أن يعود إلى النهر ويسير بمحازاته متخفياً بين أشجار الليمون والمانجو وعندما يبتعد قليلاً عن المدينة يعود إلى طريق المواصلات البري الذي يمر بالقرب من النهر فمن المحتمل أن يجد له مكاناً شاغراً في أي حافلة تبعده عن هذا الفخ الذي وجد نفسه فيه أينما ذهب .

وبدأت نفسه تحدثه وتحثه على المقاومة :

ـ لابد أن تصمد ولا تستسلم لهم أبداً لا يمكن أن تكون لقمة سهلة ووجبة دسمة تلوكها أضراسهم ، قاوم بكل ما أوتيت من قوة في سبيل إنقاذ رقبتك من حبل المشنقة .

كانت خطواته متسارعه تسارع دقات قلبه السقيم ومعنوياته محطمة تحطم عقله المختل ، هكذا صورت له نفسه المريضة الحياة على أنها خرابٌ ودمار وسفك دماء وقتل أنفس بريئة كُتب لها أن تعيش لُتعمر أرض الله الفسيحة الرحبة لا أن تموت ثم تفنى وتبلى وتكون ذكرى من الماضي البعيد وهكذا

ظل يسير متأرجح الخُطى شارد الـذهن مشـتت التركيـز حتـى أدرك ورشة ميكانيكا لا تبعد عن النهر كثيراً يبدو من مظهرها الخارجي بأن هناك أعمال غير قانونيـة تُـزاول فيهـا في الخفـاء بعيدة كل البعد عن أعين عامة الناس لا يعلم مكانهـا إلا قلـة تقودهم أقدامهم سراً لشراء قطع غيار بسعر بخس . حيـثُ أن القـائمين عليهـا بـاعوا ضـمائرهم للشـيطان في سـاعة غفلـة وأغواهم باحترافية كبيرة وحبـب لهـم نهـب سـيارات النـاس وتشليحها ثم إعادة بيعها.

في ركن منزوي لمح خيمة تردد طويلاً قبـل أن يقـترب منهـا وألقى بالتحية من على البعد بشـفاه مرتجفـة وأنتظـر .. إلا أن الرد تأخر ولم يأت في حينها وبعد صمت مهُيب جـاءه صـوتٍ واهن يبدو أن صاحبه يرزح تحت ضغط وإعياء كبيرين.

****

آب الجميع إلى المنطقة بعد رحلة يوم شـاق لم يجنـوا منهـا إلا الفشل المريع و لم يكن يشغل بالهم غير الصادق الذي حيرهـم وشتت أفكارهم ، كـانوا تـواقين للانقضـاض عليـه كالنسـور الجائعة والنيل منه وتقديمه للعدالة التي تقتص منه ولكن ذهبت

أمانيهم وأحلامهم أدراج الرياح ، فكـثيرون مـنهم لم يتفوهـوا بكلمة بل ظلوا صامتين رغم أن هناك نيران تشتعل بصدورهم وثورة عارمة تغلي بدواخلهم مـن شـدة الغـبن الـذي يسـكن ذواتهم وقرروا أن يتوزعوا صباح الغـد إلى مجموعـات بحيـثُ تتجه كل مجموعة إلى جهة معينة مع الأخذ في الاعتبار تكثيـف الاتصالات مع كل الجهـات إلا أن هـذه الخطـط قـد أُلغيـت جميعها بعد أن وصلوا إلى المنطقة وعلموا بـأن سـلوى لم تمـت وأن عافيتها الغائبة عادت إليها وأن الجرح الذي أصابها لم يكن نافذ يهدد حياتها.

طوق النجاة

وقف الصادق متصلباً محتاراً بين التقدم إلى الأمام والانتظار ، ما أصعب لحظات الانتظار والترقب إنها خليط بين الخوف والرغبة من جهة ، الحيرة والرهبة من جهة أخرى ، ولم يمضي على ذلك سوى لحظات وانبثق أنين متقطع من جديد ولا شعورياً اندفع الصادق إلى الداخل ووجد شبح إنسان مستلقي على ظهره مقيد من يديه ورجليه بحبال غليظة ومربوط على أوتاد عملاقة ومكمم الفم بلاصق سميك ولم يتوانى الصادق كثيراً وانتزع اللاصق بقوة وباغت الرجل بقوله :

ـ ما هو الجرم الذي ارتكبته حتى تم تكبيلك هكذا ؟

وفي فزع قال الرجل :

ـ عليك أن تذهب بعيداً من هنا و بسرعة إذا وجدوك معي ستلاقي نفس المصير وستتهم بنفس التُهمة التي لُفقت لي .. هيا ابتعد قبل أن يعودوا . أعتقد بأنهم نصبوا شباكهم حتى يوقعوا بالمجرم الأصيل .

وأضاف الصادق الذي ما زال مندهشاً :

ـ ولكن لم تقل لي من هم ؟

ـ أصحاب أحد السيارات المسروقة وجدوا أجزاء منها هنا .
وأضاف الصادق في حماقة :
ـ أأنت تسرق سيارات الناس ثم تقوم بتفكيكها ؟
هز الرجل رأسه نافياً هذه التهمة واستطرد قائلاً :
ـ أنا أعمل خفير فقط هناك من يقوم بهـذا العمـل البغـيض ، ولكنه لا يظهر على الصـورة أبـداً يـأتي تحـت جـنح الظـلام يستقبل زبائنه في مدة لا تتعدى سـاعات ويسـتلم مـنهم المـال ويعطيني حافز جيد ثم ينسحب .
وأردف الصادق قائلاً :
ـ في نص القانون أنت مجرم لأنك شاركت بالفعـل في الجريمـة يجب أن تدل السلطات علـى مكـان زميلـك أو أن توضـع في الحبس .
ورد عليه الرجل قائلاً :
ـ ولكني لم أكن أعلم بهـذا العمـل الـدنيء إلا أخـيراً وعنـدما حاولت الانسحاب أغراني هذا الرجل بالمال .
استل الصادق سكيناً أخرى غير التي طعن بهـا سـلوى وقـام بقطع الحبال وقال للرجل يجب أن تهرب معي ولكـن عـدني بأن لا تعود إلى هذا العمل المُشين مرة أخرى.

شكره الرجل على حسن صنيعة ونهض من مكانه وسارا مع بعض وهو يلهج بعبارات الشكر والثناء ، أما الصادق فكان يقول في نفسه:

ـ لو علم هذا الرجل الجريمة التي ارتكبتها لفر من أمامي ، وإذا قارنت ما أقدم عليه مع ما اغترفته فهو بمثابة رجل صالح ولكن يجب أن لا اكشف له عن شيء أبداً .

وكان الرجل يقول في نفسه :

ـ يبدو أن هذا من الرجال الصالحين القلائل فقد أنقذني لابد أن أرد له هذا الجميل

تنقل الصادق وصاحبه من مكان إلى آخر لُعدة أيام متخفيان عن أعين الناس وبعد أن هدأ الجو قررا أن يبتعدا عن المدينة .

****

شيئاً فشيئا عادت سلوى إلى رشدها واستردت جل عافيتها المسلوبة ومع مرور الأيام بدأ وخز الضمير يؤنبها ونوبات العتاب تغزوها ومحاسبة النفس تسيطر عليها كان شريط الموت يمر عليها من وقت لآخر بكل تفاصيله المريعة الباكية لا يريد أن يخرج من ذهنها أبداً فقد حاولت كثيراً نسيانه ولكنه تمكن منها وأن سياطه الأليمة تلسعها عندما تجلس وحيدة .. يا لها

من حياة قاسية مُرة عندما يعيش الإنسان داخل نفسه ويحتجـز ألامه وحسراته في ذاته المترعـة بالأسـى والحـزن .. شـعور لا يحسه إلا من لم يتذوق طعم عذاباته .. نشوة المرح ومتعة الفرح تظلان غائبتان متواريتان لا تحـاولا الاقـتراب مـن هـذا الجـو المشحون المملوء بالتناقضات وهي تنظر في دهشة وترقب.

ذات مساء نهضت سلوى بخطى فاترة لا تدري أين تذهب وماذا ستفعل في مقبل الأيام فالخطط التي رسمتها وظلت تنتظر الأيام لتنفيذها وترجمتها إلى نجاحات قد فشلت والأموال الـتي جنتها وظنت أنها ستؤمن لها مستقبل مشرق زاهي براق وحياة كريمة قد تناثرت ولم يبق منها إلا الذكرى والجموع التي كانـت تلتف حولها وتؤازرها وتناصرها في أيام عزها ومجدها انفضت في لمح البصر وتوارت كالخفافيش، إنها حياة المصالح والمنـافع الوقتية تعلو حتى تصل القمة ثم تهبط فجأة حتى تدرك القـاع ، الفقر اللعين على وشـك الـدخول إلى دارهـا إن لم تسـتدرك نفسها وتعيد ترتيب أوراقها المبعثرة وذلك ببيع ما تبقى لها من متاع لكي تنتشل نفسها مـن هـذه الأمـواج المتلاطمـة وتفـتح مشروع جديد يزيح عنها الكابوس الذي يتربـص بهـا والـذي كشر عن أنيابه يريد الانقضاض عليها والنيل منها .

ناجت سلوى ذاتها في ضجر قائلة :

ـ لو بعت أثاث بيتي سوف أجمع مبلغ من المال ينتشلني من غياهب الجب ، ولكن ماذا سأفعل بعد هذه المجازفة ؟ .. هكذا ظلت تردد وصدى صوتها يعود مُتكسراً .

عادت تسأل نفسها مرة أخرى :

ـ سوف أفتح دكان صغير في السوق وأبيع كل ما يخص النساء من أدوات زينة وأدوات طبخ وخلافه وسأجد نفسي بعد عام أو عامين على أكثر تقدير ثرية يتهافت الناس إلى دكاني لأخذ ما يخصهم وبالطبع سأوظف الكثير من الفتيات في المحل وسيكون مشروع استثماري ناجح مائة في المائة يخدم المنطقة بأكملها وسوف أجلس على مقعد وثير واستلم النقود من الزبائن وآمر الفتيات بتسليمهم أغراضهم . سوف أكون فطنة وحازمة في التعامل مع موظفاتي والتي تتواني أو تتكاسل سأطردها شر طرده وسوف أجعلها تتسكع في الطرقات ، ثم توقفت فجأة عن هذا السيناريو وضحكت ضحكة كلها سخرية ووضعت أطراف أصابع يدها اليمني على مُقدمة جبينها واستطردت متسائلة :

ـ وماذا أنا فاعلة لو فشل هـذا المشـروع ؟ بالتأكيـد سـتنقلب حياتي رأساً على عقب وتتحول إلى جحيم لا يطاق ويشـمت فيّ الصغير والكبير هذه فكرة غير صائبة ومخاطرة غـير مأمونـة الجوانب يجب أن أبعدها جانباً ولم تمـر غـير هنيهـة وإذ بفكـرة جديدة عابرة انتزعتها من ذاكرتها المزدحمة وقالت تسأل نفسها المتأرجحة :

ـ وماذا لوعُدت إلى صـناعة الخمـر ولِمُـدة وجيـزة ؟ بالتأكيـد سوف أجني مال وفير في زمن قصير ثم أتركها وأتـوب إلى الله توبة نصوحة وأكون امرأة صالحة خائفة تائبة لله أصلي عنـدما يحين وقت الصلاة وأقيم الليـل بطولـه وأزكـي إذا بلـغ مـالي النصاب وأصوم عندما يهل هلال رمضان وأحج إلى بيت الله الحرام إن استطعت إلى ذلك سبيلا وأعبد الله خير عبـادة ثـم تداركت الموقف وعادت من غفلتها اللحظية وقالت:

ـ ولكن الأموال التي سأجنيها فأساسـها حـرام ستفسـد علـيّ تجارتي التي سوف أقدم عليها في المستقبل .

إذن لا خيار أمامي إلا أن أستدين مبلغ بضـمان بـيتي ولأجـل مسمى وقتها إن لم أحصل على مقابلها سأعطي الـدار للـدائن غير مأسوف عليها ثم قالت في تحفظ:

ـ ومن يوافق على إعطائي المال ؟ الكل هنا يعرف خصالي وأفعالي البشعة من الصعوبة إيجاد شخص يلبي طلبي وينقذني مما أن فيه من تعاسة وعناء فقد زرعت الريح فلابد أن أحصد العاصفة ، صحيح أن زوجي السابق والذي طلقني ميسور الحال إلا أن علاقتي معه متوترة فقد حرمني رؤية بنتي الوحيدة بسبب سوء سلوكي ولا أعتقد بأنه سيوافق على الدين حتى أن المحكمة التي استعنت بها لتقف إلى جانبي في أحقيتي لحضانة بنتي ارتأت بأني غير صالحة لتربيتها ووجد زوجي ضالته وحشد الحشود التي شهدت ضدي ووصفتني بالسكيرة التي لا هم لها إلا صناعة الخمور لتعكير صفو الأحباب وللحق لم يكن زوجي سيئاً فقد حاول معي بشتى الطرق ليُصلح حالي ولكنه لم يُوفق ولم أدرك خطئي إلا بعد فوات الأوان.

وأضافت في حسرة :

وبنتي التي لم أرها منذ سنوات صارت فتاة تعرف كل شيء وأظنها تعيش صراع داخلي عنيف ويتفطر قلبها من شدة شوقها لي وتمتلئ مآقيها بالدمع ولا تستطيع أن تُروح عن نفسها ، وهي لا تريد أن تقترب مني لكيلا تلتصق سمعتي باسمها وتصبح منبوذة بين قريناتها ، ولكني متأكدة من أنها

سوف تأتي يوماً وتبحث عني ونتصافى ونتعافى وتعود المياه إلى مجاريها، ثم ضحكت ضحكة رنانة مملوءة بالبؤس وآهة خرجت من جوفها وقالت:

ـ الأيام لا ترحم فقد حشرتني في زاوية ضيقة وقيدتني بحبال غليظة وظلت تراقبني من على البعد، أما أن أنتصر عليها أو أهزم وأخرج منها منكسرة خاسرة مستكينة خاضعة خانعة وذليلة.

وأضافت وهي في حيرة:

لماذا لا استعين بأحد أصدقاء زوجي كوسيط بيني وبينه لطرح وجهة نظري له فمن المحتمل أن يوافق عليها .

وأردفت في ملل متسائلة :

ـ ومن يتوسط لي ؟ كل إنسان في هذا الزمان لا يفعل أي شيء بدون مقابل .. يا لها من دنيا غريبة .

وقالت وهي تبتسم :

ـ لا بأس إذا وجدت من يتوسط لي سوف أعطيه ما يريد لو حقق لي مرادي

وأضافت في حزن:

ـ زوجي السابق لم يدعني أرى بنتي فكيف يوافق على إقراضي المال ؟ ثم أن عُرى الثقة قد تقطعت بيننا اللهم إلا إذا هبطت معجزة من السماء أقنعته بصدق نيتي .

****

ساد الصمت بين الصادق ومرافقه وسارا جنباً إلى جنب في محاوله منهما للابتعاد عن موطن الخطر. ما زال الصادق متخفياً في زي الرجل الصالح الذي يُقدم الخير للمحتاجين .. وما زال رفيقه عنه غافل ولم ينتبه أبداً إلى ارتباكه والتفاتاته المتكررة . ولما اقتربا من الشارع العام طلب منه الصادق أن يتوارى معه تحت شجرة ظليلة فإذا جاءت وسيلة موصلات خرجا إليها في الحال ومن ثم ينطلقا فيها ولم يمض على مكوثهما طويلاً وجاءت شاحنة تتهادى في الطريق يتمنى سائقها أن يجد من يصطحبه ويبدد عنه لحظة السكون ووحشة الوحدة ولما رآهما استبشر خيراً ودون أن يشيرا إليه توقف طالباً منهما الصعود ولم يسألوه عن الوجهة التي ينوي الذهاب إليها كان أملهما أن يخرجا من هذا المستنقع وبأسرع ما

يكون .. تمنيا لو يتخطفهما طير عملاق ويطير بهما بعيداً ويضعهما بين طيات السحاب بعيداً عن هذا العالم المجنون.

سائق الشاحنة رجل مرح يختلق القفشات والنكات بين اللحظة والأخرى ويضحك ملء فيه كما لو أن شخص آخر يحكيها له كان يتلذذ بضحكته المزعجة التي تمتزج مع صوت ماكينة شاحنته الصاخب وكثيراً ما يلتفت إليهما ليرى ردة فعلهما والمفعول السحري الذي أحدثته هذه الطرائف ولا يرى إلا ابتسامة باهتة تخرج من شفاههما المتحجرة . وبعد أن شعر بأن شفرة حياتهما عصية عليه ولا يستطيع فكها بيسر بادرهما بقوله :

ـ الدنيا لحظة عيشاها بأفراحها وأتراحها وهي كوميض من البرق الذي لا يتيح لك ثوان معدودات لتتمعن في ألوانه وتتأكد منها ، إذا ظللتما تدققان في كل كبيرة وصغيرة في هذه الدنيا سيكون الاكتئاب حليفكما وتخبو الابتسامة من شفاهكما ويكون الوجوم صديقكما الدائم .

****

بعد مسيرة ثلاث ساعات ونصف أدركوا استراحة على الطريق فيها كل أصناف الأطعمة والمشروبات الباردة والساخنة توقف سائق الشاحنة لأخذ قسط من الراحة وترجل من

سيارته وتبعه الصـادق ومرافقـه كانـت هنـاك فتـاة في ريعـان شبابها تتابع حركتهم لحظة وصول الشاحنة ولما أصبح قائـدها على بعد أمتار من حيثُ تجلس بادرته بالحديث في غنج قائلة :

ـ المكان أصبح لا طعم ولا رائحة ولا لون له من دونك ، لقد سجلت غياباً طويلاً كنا بالأمس القريب نتحدث عنك ولم نكن نعلم بأنك بين ظهرانينا.

ورد عليها السائق وهو يبتسم :

ـ لا داعي للمزاح الآن معي ضيوف أتمنى أن تكرمي مثواهم .

قالت ونشوة الفرح ما برحت شفاهها:

ـ إذا لم تحملهما الأرض وضعتهما في حدقات عيوني .

وقال قائد الشاحنة في مجاملة :

ـ تسلم عيونك.

ثم دلفت الفتاة للداخل وجاءت بمائدة عامرة تضـج بأصـناف من المشويات والفاكهة ووضـعتها بيـنهم في أدب وجلسـت في كرسيها لتعد لهم الشاي والقهوة .

حال حضور الفتاة من الداخل انبعثت روائح زكيـة حلـوة عبقت بهو المكان .. فاحت من ملابسها رائحة المسك العطـرة وامتزجت ببخور الصندل المنبعث من المبخرة المجاورة .. روائح

النعناع والقرفة التي تفوح من أكواب الشاي الساخنة جعلت الجو يعج بالانتعاش.

في هذا الجو الحالم تناولوا الطعام الشهي في شراهة لحظتها وضعت الفتاة الشاي والقهوة وأثناء رشف أكواب الشاي وفناجين القهوة لاحظ الصادق أن قائد الشاحنة أومأ برأسه إلى الفتاة بطريقة ماكرة ابتسمت في خجل وحملقت عيونها يمنة ويسرة . لم يتفوه السائق بكلمة ولا الفتاة قالت حرف ولكن يبدو أن هناك حوار صامت يدور بينهما ، حتى مرافق الصادق انتبه لذلك ولكن لم يكن لهما أي مصلحة في معرفة ما يدور بينهما يكفيهما أنهما تناولا وجبة دسمة وبالمجان.

تأوه الصادق من شدة الضيم الذي يسكن نفسه ثم تفوه قائلاً لقائد الشاحنة المندمج مع خليلته:

ـ يبدو أنك أصبت الحقيقة في حديثك عن الدنيا ووضعت البلسم على الجرح النازف كنا نأمل أن نواصل معك المسيرة لكي نستفيد من هذه الأقوال المأثورة المفيدة ولكن يبدو أننا أدركنا مبتغانا.

وأشار إلى صاحبه بقوله:

ـ هيا يا رفيقي نبحث عن ضالتنا في هذا السوق وشكراه على حسن صنيعه وفارقهما ملوحا لهما بيده تاركاً خلفه العديد من علامات الاستفهام.

قال الرجل الذي رافق الصادق في تعجب :

ـ كان من الأفضل أن نواصل خط سيرنا مع هذا السائق المرح.

هز الصادق رأسه ثم قال :

ـ ولكن إذا جاء أصحابك الذين شدوا وثاقك بالحبال ولم يجدوك سيقتفون أثرك ومن السهولة أن يصلوا إلى الشاحنة التي تزحف كالسلحفاء وإذا قُبض عليك فسوف لا تجد هواءً نقياً تستنشقه بعد الآن وأضاف :

ـ من المستبعد أن يفكروا في المكان الذي نزلنا فيه ثم أن هذا السوق هو مُجمع يأتي بالعديد من الناس سوف نجد ضالتنا هنا ونرتاح من وعثاء السفر ومن المستحيل أن لا نجد عمل.

تدخل الرجل قائلاً :

ـ ولكني لا أحبذ العمل في المدن حيثُ تنعدم المصداقية وتعم الضوضاء ففي المناطق الأقل كثافة تجد أُناس طيبون ، الطبيعة التي نشئوا فيها لم تؤثر فيهم ولم تغير من طباعهم عكس الذين

يقطنون في المدن فضغوط الحياة حولتهم إلى ذئاب مفترسة تنهش كل شيء أمامها .

ضحك الصادق في هستيرية ثم قال :

ـ أما زلت تعتقد بأن معدن القرويين لم يتغير ؟ لقد طالهم التأثير وجذبهم تيار الكذب الجارف وانصهروا مع أسلافهم في بوتقة واحدة.

****

انتظر الصادق صباح اليوم التالي بلهفة شديدة ليبحث له عن أي عمل ، أما مرافقه ففضّل أن يرحل إلى جهة أخرى ومع بزوغ شمس الصباح سلك كلاً منهما طريقه وقام الصادق بجولة استطلاعية في السوق وشاهد أن المطاعم منتشرة بكثرة لذلك فكر في أن يجد له فرصة عمل فيها حيثُ لا يتطلب العمل فيها أي مهارة أو حتى سابق معرفة ولكن العقبة التي ستواجهه أنه لا يعرف أي شخص حتى يساعده ويزكيه لدى أصحاب تلك المطاعم وقرر أن يغامر ويخوض تجربة الطواف وحيداً لعل وعسى أن يوفق في مسعاه.

ظل طوال النهار يطوف على المطاعم حتى كاد يفقد الأمل وعاد في المساء إلى حيثً مأواه في السوق مع الكثيرين الذين لا مكان لهم وأمسى طوال الليل يتضرع إلى الله أن يغفر له ما بدر منه وأن يوفقه إلى طريق الرشاد وأن يرزقه عملاً حلالاً يقتات منه بكده وعرق جبينه وفي صباح اليوم التالي توكل على الله وبدا جولته وقد استجاب الله لدعائه بأن يسر له فرصة في أحد المطاعم وهي غاسل صحون بأجر يومي تم الاتفاق عليه واشترط عليه صاحب المطعم بأنه سيقوم بإنهاء خدماته إذا لم يصلح للعمل ووافق الصادق مكرهاً على ذلك وبدأ العمل من فوره .

ظل العمال ينظرون إليه بين الحين والآخر ولا يودون أن يقدموا له مساعدة ففي أي مجال يجد الإنسان صعوبة في التأقلم مع من حوله فيحس بأنه الوحيد الذي تُسلط نحوه كل النظرات.

وجد الصادق صعوبة في البداية لأن الوقوف في مكان واحد ولساعات طوال مرهق وممل بيد أنه كان مجبراً ثم أن المكان الذي وضع فيه مغلق لا يمكن أن يراه أحد من رواد المطعم وهذا ما جعله يستمر دونما تذمر أو ضجر.

الخدعة

استطاعت سلوى أن تحظى بالدعم الذي سعت إليه حيثُ توسط لها أحد الخيريين بينها وطليقها ، ولكنه اشترط عليها أن لا تُماطل في رد الدين في موعده الذي تم الاتفاق عليه والمحدد بستة أشهر وأن دارها ستؤول إلى الدائن في حالة عدم قدرتها على الوفاء وأن الوسيط هو الضامن الأول لها ويكون المسئول المباشر ووقع على تعهد بدفع المبلغ في حالة ممانعتها وعلى ذلك شهد الشهود وسُلمت المبلغ الذي فرحت به كثيراً كما لو أنه مُنح لها هِبة غير مستردة وشرعت على الفور في تنفيذ مخططها وبحثت عن مكان تستأجره في السوق. وبالرغم من أنها وجدت الموقع الملائم إلا أن الإيجار كان خيالياً ومُبالغاً فيه. وأن المالك طلب إيجار ستة أشهر مقدم قبل توقيع العقد ، وأن المبلغ المطلوب يزيد عن نصف ما اقترضته وقد حاولت جاهدة مع صاحب المحل بأن يأخذ أجرة ثلاثة أشهر إلا أنه كان مُصراً على رأيه وقال لها في كبرياء :

ـ أن يظل محلي مغلقاً خيرٌ من أن أتراجع عن قراري ورمى لها بقصاصة ورق كتب عليها رقم هاتفه المميز وأضاف قائلاً :

ـ إذا رغبتِ في المحل ما عليك سوى الاتصال وسوف أكون عندك بعد لحظات وأدار مقود سيارته ولوح لها بيده وانطلق تاركاً وراءه الغبار واختفى بين جزيئاته.

****

انخرط الصادق في العمل رغم المعاناة التي وجدها في الأيام الأولى من حيثُ الأسلوب اللا إنساني الذي بدر من مالك المطعم اللئيم بسبب بطء حركته وعدم إجادته للتنظيف إلا أنه ظل صامتاً يومئ برأسه بالإيجاب دائماً على الإرشادات والنصائح التي يوجهها له وأن نفسه تخاطبه قائلة :

ـ أصبر ولا تكن عجولاً فتفسد كل شيء . إذا طُردت من هنا فقد لا تجد مأوى تنام فيه ثم أن هذا الموضع الذي وضعت فيه آمن مقارنة بالظروف التي تعيشها وليس هناك أحد يعلم عن حقيقتك و ماضيك شيئا .

بعد أيام قلائل وجد نفسه مندمجاً مع زملائه وأن الأرق قد زال تماماً وأن التوبيخ اللاذع الجارح قد حل مكانه الإطراء والثناء من صاحب المطعم الحقير.

ورغم الجو الذي هيئه لنفسه والهالة الإعلامية الكبيرة التي صنعها والعديد من الصداقات التي كوّنها ونسج خيوطها بيديه

إلا أن الذنب الذي ارتكبه ظل يطارده كظله .. ما زالت صورة سلوى ماثلة أمامه وهي تترنح .. تقاسيم وجهها بالكامل ما برحت عقله و لو لثانية .. خدودها الممتلئة وأنفها الأفطس الذي يتوسط وجهها الأبنوسي اللامع ما زالت تتراءى له حتى وهو يغسل الصحون .. كان يرى صورتها ويسمع صوتها وهي تستغيث .. فكثيراً ما لمحه صديقه الذي يعمل معه وهو يُعيد غسل نفس الصحن عُدة مرات ويُهمهم بحديث غريب ، وكثيراً ما شك في سلوكه غير السوي وتصرفاته اللا معقولة ، وكثيراً ما حادثه في هذا الشأن. إلا أنه دائماً ما يبرر فعلته هذه بأن هناك وسواساً قهرياً يأمره بإعادة ما قام به من عمل لأنه لم يتقنه وأن صديقه قد حبب له قراءة القرآن حتى يطرد هذه الكوابيس التي تغزو نفسه السقيمة وإلا سوف يصبح في عداد المعتوهين الذين يجوبون الطرقات ويسيرون بلا هُدى .

الأمل المفقود

لم توفق سلوى في استئجار المحل الذي بنت عليه أحلامها . ولم تستطع إقناع ذلك المؤجر العنيد بأن يأخذ أُجرة ثلاثة أشهر، كما أن المدة التي حددها زوجها السابق تمضي للأمام ولا تريد أن تتوقف أبداً .. إنها تتحرك بسرعة جنونية مُذهلة ولا خيار أمامها إلا أن تفكر في مشروع جديد وفي وقت وجيز وإذا فشلت ونفذ ما معها من مال ستؤول ملكية بيتها لطليقها وهذا ما لا تتمناه .

ظلت تفكر حتى أعياها التفكير وقد هداها عقلها المعلول إلى حيلة ماكرة وقررت أن تنفذها رغم علمها اليقين بأن ما ستُقدم عليه من عمل لا يشبه المروءة ولا النخوة في شيء وفكرتها أن تتوارى عن الأنظار لفترة من الوقت وأن الضامن سوف يكون في مواجهة مع الدائن فقد ترددت بين الانتظار حتى انقضاء المدة المتفق عليها وبين الابتعاد الذي يجلب على من وثق فيها المشاكل والمهازل والتي هو في غنٍ عنها وذنبه أنه مد

يـد العـون وأنقـذ إنسـانه كانـت في حاجـة لمـن يقـف معهـا ويساندها.

****

تدافعت الأيام يوماً بعد آخر حتى غـدت أشـهر ومـن ثـم اكتملت سنة حيثُ خطى الصادق خطوات كبيرة وجمع مبلغ لا بأس به من المال وتمت ترقيته إلى مشرف عمال المطعم وأصبح صاحب كلمة والآمر والناهي والمسيطر على مجريات العمل والمسئول المباشر عن استلام الإيـرادات وإنفـاق المصـروفات حيثُ أشركه صاحب المطعم بنسبة جيدة نظير إدارته للعمل في غيابه وكانت سانحة طيبة ليتعـرف على كـل صـغيرة وكـبيرة ويتعامل مع التجار مباشرةً دون وسطاء .

كان يقوم بشـراء الخِـراف مـن أصـحابها أمـا مهمـة شـراء الأسماك فقد أُوكلت لأحد العمال ولم يكن نزيهاً حيـثُ كـان يأخذ مبلغاً كبيراً ويأتي بأسماك قليلة وعندما يسـأله الصـادق عن هذا التذبذب فكان يـتحجج بغـلاء الأسـعار لـذلك قـرر الصادق أن يضع حداً لهذا التلاعب .

سنحت الفرصة للصادق عندما مرض شريكه بـداء عضـال ولم يستطع أن يجد العلاج الشافي رغم طوافه على الكـثير مـن

الأخصائيين وفي نهاية المطاف قام بتصفية العمل مع الصادق والذي دفع له مبلغ من المال وتخلى له عن كل شيء وآلت الملكية إليه بالكامل.

أول الترتيبات التي قام بها هي إعادة هيكلة العمل من جديد و قام بالتخلص من كل العمال المتخاذلين الكسالى عديمي الضمير وعلى رأسهم ذلك النصاب الذي أُسندت إليه مهمة شراء الأسماك ونصّب نفسه أميناً مالياً وما على البقية إلا العمل مقابل استلام رواتبهم نهاية كل شهر كما أنه خرج من مخبأه وأصبح يجلس على صدر المطعم بائناً للعيان لا يهاب أحداً من الناس .

****

ذات صباح وفي وقت الذروة وعند موعد الإفطار وبينما كان الصادق مشغولاً بمحاسبة الزبائن اقتحمت مطعمه إحدى الفتيات لم يهتم لأمرها في بادئ الأمر وطلبت الطعام وتمت تلبية طلبها في الحال وعندما بدأت في تناوله التفتت إلى الشخص الجالس على صندوق المحاسبة لتتلاقي عيونها مع عيون الصادق وتمتزج نظراتهما في بعض و ظل الصادق لعُدة

دقائق يتساءل عن الزمان والمكـان الـذي رآهـا فيـه .. فجـأة قفزت فكرة من ذاكرته المكتظـة لـيتراءى لـه سـائق الشـاحنة الودود وهو يتحدث معها في حوار صامت ، لحظتها اقتحمـت أنفه رائحة العطور الحلوة والتي ما بارحت أنفه منذ تلك الفترة . نادى على أحد العاملين في الحال وقال له في اهتمام :

ـ وفر أشهي ما لدينا من طعام لتلك الفتاة .

لبى العامل الأمر ووضع بين يـديها الطلـب ولم تتفـوه بكلمـة ولكن كانت هناك تساؤلات عديدة تدور في ذهنهـا وبعـد أن فرغت من تناول طعامها جاءت تتهادى لتدفع مـا عليهـا مـن حساب و أفادها الصادق بأن حسابها مـدفوع ألحـت عليـه أن يدلها على الشخص الذي دفع عنها إلا أنـه كـان مُصـراً علـى عدم تسمية من دفع عنها.

لم تتزحزح من أمامه وقالت في عناد :

إذا لم تقل لي من دفع عني عليك أن تأخذ حسـابك وأضـافت في إصرار:

ـ أصبحت أخشى كل من يدب على ظهر البسـيطة ، الحيـاة لم تكن كما كانت في السابق والبشر تحـوروا وصـاروا حيوانـات مفترسة لا أحد يمنحك شئ إلا وله من وراء ذلك أهداف .

ولما طال جدالها قال الصادق وهو يملكها الحقيقة :
ـ أنا من دفع عنك.
امتزجت في وجهها ألوان من السخط والاستغراب وتفوهت في تعجب وسيل من الأسئلة تدافعت من شفاهها المرتجفة :
لماذا تدفع عني ؟
وما صلة القرابة التي تربطني بك ؟
وهل وقفت يوماً أمامك وشكوت لك حالي ؟
وأضافت وهي تنتفض من الغضب :
ـ صدق حدسي عندما همست نفسي وأخبرتني بأنك من دفع عني الحساب وقالت تتوعده:
ـ أرجوك أبعد شرورك عني وحلمك الذي يراودك بعيد المنال.
ورد عليها الصادق في صوت خفيض قائلاً :
ـ بل أعرفك وجلست في محلك يوماً واكرمتيني لذلك أردت أن أرد لك الجميل .
انخفض تيرمومتر غضبها الجامح وهدأت ثورتها العاصفة وإجترت كتاب الذكريات الضخم الذي بحوزتها ونقبت فيه ولكنها لم تجد ضالتها وقالت في تسامح :
ـ أرجوك عرفني بنفسك .

قال الصادق وقاموس الحياة الضخم انفتح أمامه وهو يقرأ سطوره في تأني:

قبل أكثر من سنة ونصف جئتُ ومرافق لي مع سائق شاحنة وقال لك هؤلاء ضيوفي أكرميهُم قاطعته قبل أن يكمل حديثه وبسمه عابرة تسللت من ثغرها وقالت في حماس :

ـ الآن افتكرتك.

وأضافت ممازحة :

ـ ولكن هيئتك لم تكن كالسابق كنت أشعث أغبر ، هزيل الجسم .

وتساءلت في لهفة قائلة :

ولكن أين صاحبكم الخائن الغدار (سائق الشاحنة).

وقال الصادق مدافعاً عنه :

ـ عندما عرفته لم يكن إلا بشوشاً ودودا.

ضحكت ضحكة من أعماق أعماقها وقالت :

ـ ألم أقل لك بأن بني البشر يستطيع أن يتفوق على الحرباء ويتلون بألآف الألوان في لحظات .

افترت من فمها ابتسامه جديدة أكثر روعة وجمالا ثم قالت هازئة :

ـ هل تصدق بأن صاحبكم ظل يتردد على محلي ولعامين كاملين يأكل ويشرب ويدخن ويغذي هاتفه بالرصيد على حسابي ويوعدني في كل مرة يزورني فيها بأنه سيأتي في الأيام القادمات ويخطبني من أهلي ويتزوجني وظللت أنسج خيوط الأحلام وأغزل أصواف الأمنيات ولكن هيهات .

وضع الصادق أصابعه على جبينه وتساءل في حيرة:

وماذا حدث بعد ذلك ؟

آهـ ساخنة خرجت من جوفها المحروق وقالت في ندامة :

ـ لم أره بعد زيارته الأخيرة معكم اتصلت عليه بعد ذلك وكان حديثه جارحاً ورده مؤلماً ترك في نفسي شلالات من الأحزان وبحيرات من العذاب ثم أغلق هاتفه ورمى بالشريحة في جب عميق ولم أسمع صوته بعد ذلك .

قال الصادق :

ـ لا تظلميه ربما هناك سبب حال بينه وبينك .

وأضافت والخيط الواهن الذي يربطهما تراءى لها وهو ينقطع :

ـ آخر اتصال لي معه قال لي أخرجي من حياتي سوف لا تريني أبداً ما أنتِ إلا إنسانة ساذجة مغفلة بنيتِ أحلامك على

رمال متحركة وهبت رياح عاتية تلتها فيضانات عارمة هدمت بنيانك المهزوز.

هز الصادق رأسه في استغراب وأردف قائلاً :

ـ لا تعتبري نفسك غريبة فنحن أخوتك إذا أدار الزمن ظهره لك وأدبرت الدنيا فألجئي لي وأن شاء الله سأكون سداً منيعاً يحميك ويقيك من تقلبات الدهر .

ودعته وفي نفسها سكنت الطمأنينة وساد الآمان ، واختفت بعد ذلك وهجرت المنطقة واستقرت في ديار بعيدة مع أناس جدد وتأقلمت وتكيفت معهم .

ظل الصادق ولعُدة أشهر ينظر إلى الوجوه النسائية التي تقتحم محله عله يراها وعندما يئس من قدومها نسيها كما نسي احتساء أكواب الخمر المّرة.

****

نفذت سلوى فكرتها عديمة الجدوى وباعت من ساندها ووقف معها بثمنٍ بخس وأن الشيطان المارد صفق لها بحرارة وحياها لأنها عملت بأفكاره الهدامة واسترشدت بنصائحه العقيمة وفي ليلة ظلماء حزمت حقيبتها وأخذت ما تبقى لها

من مال وغادرت تلفها ظلمة الليل وتداري عنها الأعين وابتعدت عن المنطقة تاركة وراءها الحسرة والندم تؤازرها خيبة الأمل ونأت دون أن يؤنبها ضميرها أو يحرك فيها هذا الأسلوب اللا مسئول شيئا بل ظنت نفسها ذكية واستطاعت أن تخدعهما وتلوذ بالفرار بعيداً عنهما.

الورطة

استطاع الصادق بحنكته أن يعرف من أين يشترى ذلك المُخادع الأسماك وكذلك التوقيت المناسب لانخفاض الأسعار وبعد صلاة الفجر استقل السيارة مع أصحاب المطاعم إلى النهر حيثُ يبيع الصيادون أسماكهم وجرى تعارف سريع بينهم ورحبوا به كزميل جديد بينهم وبعد ساعة تقريباً وصلوا إلى الشاطئ وكانت الأسماك بكميات مهولة وبأسعار جيدة .

ولما وصلوا إلى هناك تفاجأ أحد الصياديين بهذا الزائر الجديد ودقق النظر إليه دون أن يدري به الصادق وتأكد من ملامحه بالكامل واقترب من الصادق وصافحه بقوة وبادره بقوله:

ـ ألم نتقابل قبل الآن ؟

هز الصادق رأسه نافياً معرفته به واستطرد قائلاً :

ـ أنا لم آت إلى هنا قبل هذا اليوم .

وأضاف الصيّاد مبتسماً :

ـ أعلم بأنك لم تأت إلى هنا قبل هذا. ولكني سبق وأن التقيتك.

فكر الصادق كثيرا واجتر قاموس الذكريات الضخم وقلّب صفحاته المكتظة صفحة بعد أخرى ثم نقّب بين سطوره سطراً

سطرا ثم آتى على كلماته على إنفراد ولم يجني من كل ذلك إلا حزم مـن اليـأس والفشـل ونطـق بشـفاهٍ فـاترة تجمـد فيهمـا الإحساس .

ـ يبدو أنك شبهتني على شخص آخر .

اتكأ الصيّاد على مجداف قاربه المتآكل ونطق في ثقة قائلاً :

ـ قبل سنة ونصف تقريباً أخذت منك عشرة جنيهـات مقابـل عبور النهر في الوقت الذي كـان ذلـك لا يكلفـك غـير جنيـه واحد ألا تذكر ذلك.

ارتعد الصادق من شدة الخوف الذي زاره وازداد خفقان قلبـه وأزدرد ريقه في عناء ثم قال متنكراً :

ـ أي نهر؟ وأي جنيهات ؟

والتفت إلى زملائه وقال في فزع:

ـ هيا يا رفاق الأسماك هنا ليست جيدة ثم ابتعد عـنهم قلـيلاً والصيّاد يسير خلفه هازئـاً وعنـدما حانـت منـه التفاتـه ولمـح الصياد يتتبعه قال له في تحديٍ :

ـ ماذا تريد مني ؟

ابتعد عن طريقي وإلا .. وقبل أن يكمل ما يـود قولـه تـدخل الصيّاد وبشره بقوله :

ـ المرأة التي بسببها هربت لم تمت كما صور لك عقلك المريض .. إنها حية ترزق.

لم يصدق الصادق ما سمعته أذناه وهمس قائلاً :

ـ أرجوك لا تتفوه بكلمة أمام هؤلاء سأعود إليك حالاً بعد أن آخذ ما يخصني من أسماك.

وقال الصيّاد قاطعاً عليه حبل الأماني الممتد :

ـ ولكني سأعود إلى النهر لأنصب شباكي لأحظى بحصتي من الأسماك ليوم الغد .

لاذ الصادق للصمت لثوانٍ وهو يقول في نفسه :

ـ هذا الماكر الجشع لا يغنى أبداً فقبل سنوات عديدة دُفعت له تسعون ألف جنيه في تلك السمكة العملاقة ولم يبعها . يا ترى بكم باعها في ذلك اليوم ؟

وإذا كانت حصيلته في اليوم تتجاوز هذا المبلغ لماذا لا أقايضه بأن ينتظرني مقابل أن أدفع له حصته ليوم الغد ثم نطق بوجه يتلألأ من الفرح مليء بالنشوة .. نشوة النجاة قائلاً:

ـ عِدني بأنك لا تذهب من هنا إلى أن أعود وسوف أدفع لك نظير تأخيرك ما تريد .

ربت الصيّاد على كتفه بعد أن باعه سمك بمبلغ كبير وزاده في الميزان كعربون صداقه والتي قد تدوم وودعه بحرارة ثم افترقا.

الفرار

هربت سلوى وذهبت لدار عمتها بخيته تلك المرأة الحاقدة في منطقتها البعيدة واحتمت عندها وجلست بضعة أيام عانت خلالها حرب نفسية شرسة ومريرة وقد استنطقتها عمتها لانتزاع منها المزيد من الاعترافات عن السبب الذي دعاها لزيارتها خاصة وأنها توقفت عن ذلك بعد وفاة والدها (شقيق بخيته) ولكنها لم تجد ضالتها التي تنشدها فقد كانت سلوى كتومة على أسرارها وحريصة كل الحرص على مداراتها وحمايتها بعناية . وعندما تفتعل الابتسامات كانت تشعر بغصة ومرارة في حلقها وأن الخجل ظل ملازماً لها لا يريد أن يفارق ذاتها علامات استفهام عديدة تكدست أمامها تنتظر أجوبة شافية كافية ووافية فضربها لكل المواثيق والعهود التي أبرمتها عرض الحائط يُمثل قمة النذالة والخزي .. إنه خطأ فادح وجُرم شنيع لا يرتكبه إلا من له سوابق ماضية أو مجرم غارق في بحر الإجرام العميق أو صاحب ماضي سيئ وآثام عديدة تراكمت حتى أضحت كالجبال الراسيات .

ورغم أنها جاهدت نفسها وحنثت باليمين علـى ألا تعـود إلى المربع الذي تخطته وفارقته بمحض إرادتها طائعة غير ملزمة ولا مُجبرة عادت إليه بقوة ووجدت نفسها قابعة فيه.

أيام الضيافة انتهت ولغة المجاملة والترحـاب والحفـاوة علـى وشك أن تفقد بريقها .. نظرات عمتها بخيته الملحاحه المُسـلطة نحوها كالسهام المسمومة تخترق جسدها المـترع بالـذنوب بـلا شفقة ، تشل تفكيرها وتربك حركتها وأسئلتها الخبيثـة المُبطنـة تزعجها وتكدر عليها جلسات الصفاء التي تعقدها مسـاء كـل يوم مع نفسها ورغم محاولاتهـا الفاشـلة للانفـلات مـن تلـك التحقيقات المنتقاة بإتقان إلا أنها في كثير من الأحيان تنزلق لا إرادياً في البوح بأشياء كانت تحسبها من الأسرار التي وضـعتها بعيداً ولا ترغب في أن يضطلع عليها أي أحد .

فكرت في الخروج من هذا المسـتنقع الـذي دخلـت فيـه ولم توفق في الحصول علـى حلـول بديلـة في الوقـت الـراهن لأن غريمها سيدرك بيسر الوجهة التي اتجهت إليها ومن المؤكد بأنـه سيبحث عنها في الأماكن الـتي اعتـادت ارتيادهـا حـال علمـه باختفائها.

والد سلوى المتوفى كان على خلاف مع شقيقته بخيتة ولم يزرها إلا في أوقات متباعدة في حياته وحتى عندما كانت بنته سلوى تذهب معه في تلك الزيارات العابرة لم تكن ترتاح لتدخلات عمتها السافر في حياتهم وهي لا تبادلهم الزيارات . وكان دورها مقصور على العتاب إذا مرضت أو أصابها مكروه ولم يسألوا عنها فإنها تصب جام غضبها عليهم إن جاءوها بعد ذلك لذا لم تكن معروفة لأهل المنطقة وأن سلوى طرحت كل الخيارات أمامها وكذلك النتائج المتوقع حدوثها لاحقاً ووجدت أن مخبأها حصين وآمن وقصدتها دون سائر أهلها المنتشرين بكثرة في كل المدن لهذا السبب.

****

شعر الصادق بعد لقاءه الصيّاد والذي بث إليه نبأ نجاة سلوى من الموت المحقق براحة نفسية كبيرة لم يحس بها في حياته من قبل وأن السعادة المتوارية عنه لفترة بانت ملامحها وتراءت له الأشياء تتراقص طرباً. وأن الابتسامة التي خبت لسنوات خلت عادت واقتحمت ثغره اقتحاما وحس كأنه وُلد من

جديد كطفلٍ برئ لا يُؤخذ بما يفعل أو يقول في سنوات عمره الباكرة.

ولما عاد إلى المطعم ومعه الأسماك طاف على الجميع وأخذهم في عناق حار كأنه رآهم لأول مرة بالإضافة إلى ذلك بشرهم بأن راتبهم سيكون مضاعفاً في نهاية الشهر رغم أنهم لم يأتوا بشيءٍ جديد في العمل واستغربوا تصرفه هذا وحاولوا معرفة السر وراء هذه الابتسامات المتتالية بسبب وبدونه ولم يفلحوا في الحصول على مبتغاهم وقد وجدت الأريحية والمعاملة الراقية التي شملهم بها صدى طيب في نفوسهم مما أدى إلى التماسك ، الترابط التعاضد والتكاتف وانعكس ذلك على زيادة الإنتاج وبالتالي زاد عدد الزبائن وخلق أرضية ثابتة للعمل الجاد المثمر .

لم يتأخر الصادق وآب إلى الصيّاد ليعرف السر وراء عودة سلوى إلى الحياة رغم علمه اليقين بأن المِدية التي طعنها بها اخترقت صدرها ونفذت إلى قلبها ومن غير المعقول أن تكون قد تعافت من هذه الطعنة القاتلة ولسوء حظه لم يجد الصيّاد في المكان الذي تركه فيه فقد ذهب لقضاء مُهمة له لبضعة دقائق على أمل أن يعود ويجد الصادق في انتظاره ولما وصل إلى هناك

لم يجد الصيّاد كما كان يتوقع جن جنونه والتفت يمنة ويسرةً ونادى بأعلى صوته ولكن لا حياة لمن تنادي فقد كان صدى صوته يرتد إليه يحمل بين ثناياه الخوف ممزوج بالحيرة مقرون بالكثير من الهواجس وبدأت الوساوس تفرد صفحاتها الماضية المطوية.. الشكوك والظنون تقف بجانبها تنتظر إشارة لتغزو ذاته وأن نشوة الفرح التي لم تدم طويلاً عادت تجر ثياب الندم البالية وقال يخاطب نفسه بقلبٍ واجف وأطراف مرتعدة :

ـ يبدو أن هذا المعتوه قد دبّر مكيدة للقبض عليّ وإلا لماذا اختفى رغم تأكيداتي بأني سأمنحه مقابل انتظاره مبلغاً يضاهي ما يحصل عليه يومياً.

وأضاف ووخزه مفاجئة قد أخذت مكانها داخل قلبه :

ـ من غير المستبعد أن يكون قد ذهب ليحشد الحشود ليمسكوا بي ولكن هيهات فهذا الخبيث الذي تفوح منه رائحة الأسماك الكريهة لا يستطيع أن يمسني بسوء. فالأسماك مغلوبة على أمرها فمن السهولة خداعها . ولكن إذا استخدمت القليل من الذكاء لتفادت الشباك المنصوب لها ولتركت أمثال هؤلاء الخبيثون يسيرون في الطرقات يستجدون الناس لإعطائهم أي شيء يملئون به بطونهم الخاوية .

في لمح البصر اختفى الصادق من ذلك الموقع الذي شم فيه رائحة الخيانة فإذا ظل ينتظر الصيّاد الماكر فسوف تكون نهايته أليمة ورجع إلى مقر عمله رغم بعد المسافة . كان يسير لدقائق ويختفي لساعات وقضى ذلك اليوم في كبد ومشقة لا توصف حتى أدرك مبتغاه الذي غادره صباحاً تغمره نشوة النصر وترفرف بجواره حلاوة الأمنيات .. الآن تبدل حاله وتغيرت نفسياته حتى وهو يهُم بدخول المطعم قرأ زملاؤه التغيير الغير متوقع في تقاطيع وجهه وباغتوه بسيل من الأسئلة وهم متأثرون له ومتعجبون منه :

ـ ماذا ألم بك ؟

ـ وما هي حكايتك التي أخفيتها عنا من الأساس ؟

ودعتنا وأنت تتفجر نشاطاً وحيوية كنت كالعصفور الذي خرج من قفصه للتو يحلق في الفضاء الفسيح ورغم إلحاحِنا لمعرفة سرك الدفين لكنك آثرت أن ندعك في حالك ونكتفي فقط بمشاركتك اللحظات السعيدة كما زعمت ، وأما أن تعود إلينا بعد سويعات وبهذه الحالة المزرية فهذا أمرٌ محيّر وعجيب .

لم يتفوه الصادق بكلمة وظل صامتاً كأن الأمر لا يعنيه ودلف إلى حيثُ يقيم وأغلق خلفه باب غرفته وغاص في عـالم الأحزان.

****

انتهت الأيام المتبقية من المدة التي حددها طليق سلوى والتي كان يراقبها يومياً صباح مساء وأتـى إلى الضـامن يطلـب منـه إخطارها بانتهاء الأجل المتفق عليه وعليها تجهيز المبلـغ الـذي تعهدت بسداده . ولما ذهب إلى دارها وجدها مغلقة طرق على الباب عُدة مرات ولكنه لم ير لها أثر وعندما طال انتظاره خرج إليه أحد الجيران وأفاده بأنها رحلت .

ولكن إلى أين ؟

لا يعلم.

فقد رآها ليلاً قبل عُدة أيـام وهـي تحمـل متاعهـا مُتخفيـة وعندما سـألها عـن سـبب هروبهـا لـيلاً نهرتـه وقالـت لـه في غضب :

ـ ألم أنهك من التجسس عليّ والتدخل في شئوني .

ولما حاول اللحاق بها اختفت خلف ستار الظلام ولم يسـمع عنها بعد ذلك ولم تكن له مصلحة تربطه معها ونسيها ومحاهـا

تماماً من ذاكرته المكتظة بهموم الدنيا التي ما أن تنتهي حتى تبدأ من جديد.

شعر الضامن بأن الأرض تموج به موجاً وتهتز اهتزازاً قوياً وأن قدرته على الحديث قد تلاشت تماماً ولم يجد كلمة واحدة تخرج من فمه المفتوح واستخدم يديه في الإشارة إلا أنها هي الأخرى لم تقوى على ذلك من شدة الوهن الذي أصابها و أن صداعاً جارفاً قد اخترق رأسه بعنف ولم يجد شيئاً واحداً يسانده ويقف إلى جواره حتى الجار الذي بث إليه النبأ الأليم تركه وحيداً واختفى داخل داره وتركه مع حيرته والتعب والأذى النفسي الجسيم يقفان جواره.

جلس على الأرض ليرتاح قليلاً حتى يشعر بشيء من التوازن ولكنها لم تسعفه ما زالت تدور بقوة تكالبت عليه كل المصاعب والإحن وحلت به الهموم .

لما طال انتظار طليق سلوى ولم يعد إليه الضامن قرر اللحاق به وسار في دربه وتراءى له من على البعد يزحف زحفا محاولاً القيام بكلتا يديه ورجليه ولكنه لم يستطع تعجب من هول الموقف أسرع الخُطى حتى أدركه ووقف بالقرب منه وقال متسائلاً في ضيق:

ـ ما بك؟

استجدى الكلمات ولكنها لم تأت . أشار بيديه بأن سلوى قد هربت ولم يعثر عليها في بيتها مما أثار حفيظة الدائن حيثُ نظر إلى الضامن نظرة صارمة وصاح مُهدداً :

ـ سوف أرمي بك في السجن . أملأ رئتاك من هذا الهواء الجاني قبل أن أكتم أنفاسك .

من أجبرك على مساعدتها ؟

أدفعت لك رشوة مقابل الضمانة أم فعلت ذلك بدافع الشهامة والمروءة ؟

فإذا استلمت منها مقابل مادي نظير الخدمة التي قدمتها لها قد يكون الضرر أخف ، وأن دخولك في ردهات السجن المظلم قد لا تتأسف عليه. أما إذا تعاونت معها بدافع الشهامة والرجولة فأسمح لي بأن أنعتك بالمغفل .

وأضاف في غيظ :

ولا تقل بأنك فعلت ذلك بداعي الثقة ولم تكن تدرك ما يخبأه القدر ولكن يجب أن تعلم بأن الثقة نفسها بدأت تشك في ذاتها وتتوارى منها خجلاً . كثيرون يقولون أنهم خُدعوا في الشخص الذي ضَمنوه والذي كان دمث الأخلاق، ورع ، تقي

ونقي السريرة ولكنهم تفاجئوا به يولي الأدبار ويتركهم دون أن يرف له جفن أو يعذبه ضمير . هذا مجرد هراء عفا عنه الزمن وطوى صفحاته الغابرة إلى ما لا نهاية .

وقال الضامن متحسراً:

ـ أوراق البيت بحوزتي فإذا لم تأت في الموعد فأنقل ملكيته باسمك؟

ورد الدائن بقوله:

ـ لا أريد بيتها . أتحسب أن البيت في هذه المنطقة يسوى شيء؟

وأردف قائلاً :

ـ ضع أوراق البيت التي معك في ماء بارد وأشرب منه صباحاً ومساءاً.

ثم انسحب من أمامه والشرر يقدح في عينيه والزبد يتطاير من فمه والدم يغلي في عروقه وقال متوعداً قبل أن يختفي :

ـ الأيام كفيلة بترويض أمثالك . أنت تتعاون مع مجرم كنت تعلم يقيناً بأنه سوف يختفي فأنت إذن المُجرم الحقيقي ولكنك تلبس قناع آخر غير الذي نراه على وجهك .

قناع الزيف والضلال .. قناع الخداع والخيانة .. قناع صنعته بنفسك ولنفسك.

الكلمات التي نطق بها طليق سلوى كانت قاسية على الضامن ومؤلمة فلو أخذ أحدهم جمرة مستعرة وقذف بها داخل جوفه وقطّعت أحشاؤه لما شعر بألمها كما شعر بألم الكلمات الحارقة التي نزلت عليه كالصاعقة العاتية المزمجرة وضربته بقوة.

الابتسامة الحزينة

قضى الصيّاد مُهمته بسرعة وعاد يركض وتفاجأ بعدم وجود الصادق الذي كان مُصراً على هذا اللقاء وتعجب من عدم مصداقيته وتحسر على ضياع يومه دون فائدة وأن التزام الصادق بدفع له مبلغ كبير مقابل تخليه عن نصب الشباك للأسماك لم يكن إلا خدعة ماحقة ثم تساءل في دهشة :

ـ ما الهدف الذي يرمي إليه من الكذب عليّ خاصة وأنه صاحب المصلحة في لقائي ؟

وأضاف :

ولكن ربما هناك سبباً أخره يجب أن أذهب وأسال عنه بالتأكيد سأجده وإذا لم أظفر بما تعهد به من مال سأرهبه وأهدده بموت سلوى وسيناريو الأحداث التي صاحبته والمصير القاتم الذي ينتظره ولم يتأخر وتحرك من فوره وبعد رحلة سير متعبة أدرك السوق ودلف إلى المطاعم يسأل عنه ودله أحد الأشخاص على محِله ودخل وسأل أحد العاملين عنه ولم يجبه بالنفي أو الإيجاب بل طلب منه أن ينتظر ولجأ العامل إلى زميل له وهمس في أذنه وأنضم إليهم آخر وجرت مشاورات بينهم واتفقوا على إنكار معرفتهم به حيثُ أدركوا أن هناك شيئاً غامضاً يدور في الخفاء ولا يريد الصادق إطلاعهم عليه إذن لابد لهم من معرفته قبل الزج به في فوهة المشاكل وعندما

أفادوا الصيّاد بعدم رؤيتهم له تحسر أيما تحسر على ضياع يومه دون فائدة ولعن اليوم واللحظة التي فكر فيها في إزاحة جبل الهم الجاثم على صدر الصادق الذي لم يكن صادقاً على حد قوله .

****

أمسى طليق سلوى يحترق من داخله من شدة الغبن الذي سيطر عليه فالنيران التي تأججت بجوفه لم يكن لها من داعٍ وهو من أشعلها بيديه ويجب عليه أن يحتمل قسوتها وألمها ولولا إحسانه عليها لما تعرض إلى هذا الموقف العصيب .

ثم عاد وقال في ندامة :

ـ لولا بنتي ومعزتها الغالية عندي لما أقدمت على هذا الامتحان العسير. هي من أجبرني على الوقوف معها تريد بفعلتها هذه أن تعود حياتنا إلى سابق عهدها أقدر لها تفكيرها وقرأتها للمستقبل البعيد ونظرتها الثاقبة للأحداث وأنها تنشد حياة مستقرة يسودها الدفء الأسري يملؤها الحنان ، ولكن هناك حقائق لا تعلمها ولا يستوعبها عقلها الصغير ، فوالدتها التي لا يختلف اثنان على سوء أخلاقها تراها بعين ويراها

الآخرون بأعين أخرى فقد بـذلت قصـارى جُهـدي في سـبيل إصلاح حالها وما أن تستقيم لـبعض الوقـت إلا وتعـود أكثـر اعوجاجا أنها تفتعل المشاكل وتثور لأتفه الأسـباب وتريـد أن تعيش حياتها حرة دون قيود زوجية تحكمها ولا رابط مقـدس يحميها من الأفعال المنكرة التي تأتي بها .

تريد أن تكون دائماً في القمة وعلـى رأس الهـرم ولا تريـد أن تنظر إلى الأسـفل. صـحيح أن كـل إنسـان ينظـر إلى الأعـالي ولكن عليه أن يضـع قدمـه في موضـع ثابـت حتـى لا ينزلـق ويهوى في مكان سحيق .

معمعة القضاء

إذن لابد أن ألقنها درساً لا تنساه ، وهذا الذي ضمنها يجب أن يخوض معمعة الإجراءات الحكومية الرتيبة ويدخل معترك المحاكم ودهاليزها القاتمة .. عليه أن يبحث عنها ويجدها ويخرجها من باطن الأرض إن لجأت إليها ، وإن لم يجدها عليه أن يدخل السجن نيابة عنها ساعتها سيدرك فداحة الخطأ الذي اقترفه .

صباح اليوم التالي ارتدى أحسن ما عنده من ثياب وتضمخ بأحلى ما يملكه من عطور ولم ينسى أن يأخذ معه التعهد الذي وقعه الضامن وتوجه إلى المحكمة و رغم اعتراض بنته رقية وتوسلاتها لم يلتفت إليها ولكن قلبه كان يتمزق من الداخل . لم يتوقف بل مضى في طريقه وهو ينتزع قدميه من الأرض انتزاعا ودخل المحكمة وتقدم من كاتب عدلها وحكا له القصة كاملة وفض أمامه التعهد ومعه أوراق البيت التي وافق أخيراً على أخذها من الضامن وأنتظر ردة فعل الكاتب و التي جاءت سريعة وقال بعد أن هز رأسه :

ـ سوف نقدم هـذا (العـرض حـال) للقاضـي والـذي بـدوره سيحدد موعد الجلسة . أمـا الأوراق الـتي تخـص البيـت فهـي مزيفة . ظاهرياً فهي تشبه الأوراق الرسمية ولكـن إذا دققـت النظر فهي مزورة وباحترافية كبيرة وقاطعه طليق سلوى قائلاً:

ـ لماذا خدعتني وقـد أحسـنت إليهـا؟ . فمـن المسـتحيلات أن يستقيم زيل الكلب مهما فعلت به .

وأضاف في يأس:

ـ المتهمة متوارية عن الأنظار فكيف تتم محاكمتها غيابياً؟

ضحك كاتب المحكمة وقال في ثقة :

ـ سيُحكم عليهـا غيابيـاً بالسـجن أو الوفـاء بمـا تعهـدت بـه وسيكون المتعهد في هذه الحالة المُتهم الأول أمام القضـاء فـإن جاءت فينفذ فيها الحكم وإلا فيحل الضامن محلها وينفـذ فيـه الحكم بكل حيثياته.

وتساءل طليق سلوى في استغراب :

ـ وما الحل لو هرب هو الآخر :

وقال كاتب العدل في حزم :

ـ لا تكثر الأسئلة ولا تستبق الأحداث ولا تكن متشائماً .

وصـــمت طليــق ســلوى وفي نفســه لــو يجــد إجابــات لكــل إستفسارته.
حدد القاضي موعد للجلسة وقام كاتب العدل بتسليم خطاب استدعاء للمتهمة وأن تاريخ أول جلسة سوف يكون بعد شهر من تاريخه.
وغفل طليقها عائداً إلى داره وسلم الاستدعاء إلى شيخ المنطقة وبدأ يحصي الأيام ويعد ساعاتها عدا.

الحرب النفسية

ضاقت سلوى ذرعاً من معاملة عمتها المتغطرسة والتي ضايقتها بأسئلتها وكدرت عليها معيشتها ولولا خجل تلك العمة من حديث الجيران لرمت لسلوى حقيبتها في الشارع وأوصدت بابها وجلست وحيدة تجالس العناد والحقد الدفين الذي يسكن قلبها ويحضها على معاداة كل من يمت إليها بصلة دم أو لحم.

وفي أحد الأيام وبينما كانت سلوى تطبخ لها الطعام وقفت بالقرب منها ورمقتها بنظرة احتقار ثم قالت لها في كبرياء:

ـ من علمك الطبخ ؟

وأردفت في سخرية :

ـ أمثالك لا يعرفون إلا صناعة المُسكرات.

انتفخت سلوى من الغضب وكتمت غيظها وقالت في برود:

ـ الحياة مدرسة مفتوحة للجميع تقبل كل من يريد الالتحاق بها ولا تؤصد بابها أمام أحد إلا إذا أبى .

وانفرج فم عمتها عن ابتسامة خبيثة ثم قالت متسائلة :

ـ وماذا ستفعلين في مقبل أيامك خاصة وأن منبع الدخل الوحيد الذي كنتِ تعتمدين عليه قد جف؟

وأضافت سلوى وتراءت لها كل الأبواب تغلق:

ـ باب الله واسع ونعمته وفيرة وسوف لا يضيعني أبداً ما دمتُ على الطريق القويم .

وباغتتها عمتها بسؤال ناري قائلة :

ـ وإلى أين وصلتِ مع الصادق؟

وأضافت :

يقولون بأنه دفع لك مبلغ من المال مقابل إنهاء قضيتك معه .

نظرت سلوى إليها ثم ردت في حنق متسائلة :

ـ من أين تأتين بهذه الأقوال المغلوطة ؟

وزادت من نبرة صوتها الحادة وقالت :

ـ من سلطتك حتى تألبي عليّ المواجع والآلام ؟

وأردفت :

ـ هذه الصفحات الأليمة طويتها لماذا تريدي فتحها من جديد ؟ الصادق الذي تدعي بأنه نقدني المال لم أره منذ زمن بعيد فقد اختفى بعد الحادثة مباشرة ولم يظهر حتى الآن . وحتى إذا رأيته ماذا أفعل له فقد مرت سنوات على الحادثة .

تراجعت عمتها للوراء ثم استطردت قائلة:
ـ لم آت بشيء من عندي كل الناس تعرف هذه الحقائق .
وردت سلوى في قنوط :
ـ إذا كانت إقامتي معك قد ضايقتك فسوف أرحل اليوم قبل الغد، كوني صريحة وواضحة ولا تناوشيني بسهامك الحادة.
وردت عمتها في غرور :
ـ إحساسي يقول بأنك لم تأت إلى هنا من أجل سواد عيوني لابد أن هناك خطب ما أصابك ولم تجدي ملاذاً آمناً تلجئين إليه إلا داري أليس كذلك ؟
طأطأت سلوى رأسها وقالت في خجل :
ـ نعم فقد صدق إحساسك أخذت ديناً من زوجي السابق ولم أستطع رده لأن المشروع الذي خططت له وكنت متيقنة من نجاحه فشل وأن أجل الدين قد حل وتصرفت في المبلغ وارتأيت الهروب كأفضل وسيلة للمحافظة على ما تبقى من سمعتي .
هزت عمتها رأسها هازئة ثم قالت :
ـ أنت لطخت سمعتك السيئة بفعلتك هذه كان عليك أن تظلي في دارك وتصاريحه .

وأضافت :

ـ وإلى متى ستظلين متوارية عن الأنظار ؟

وقالت سلوى منكسرة :

ـ إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا.

وصمتت عمتها وفي قلبها يعشش الصدأ وتتراكم الأدران .

البوح

خرج الصادق عن صمته وفاجأ زملاؤه بالحقيقة التي كان يخفيها عنهم وحكا لهم قصته كاملة ولم يحذف منها شيئاً كان هناك حافزاً يدفعه ويحثه على البوح . الصراع الذي عاشه ليلة الأمس أقوى من أن يحتمله قلب بشر.

كان يحس بأنه يعيش داخل زجاجة ضيقة خانقة ليس بإمكانه التنفس صمتوا طويلاً قبل أن يرد أحدهم قائلاً :

ـ لم نكن نعلم بأنك تنوء بحمل ثقيل ، كتمت كل هذا الهم عنا ونحنُ لا نشعر بذلك وأضاف آخر متضامناً معه :

ـ لماذا لم تشركنا معك . فما يضايقك يزعجنا و يكدر علينا حياتنا وما يفرحك ويسرك يشرح صدورنا .

وصاح آخر :

ـ لا تدع هذه الجزيئات الصغيرة التي أحسبها لا تساوى شيئاً تحد من عزيمتك وتزعزع قدرتك وتضعف قوتك .. لا تلتفت أبداً إلى الوراء وصاحوا جميعاً بصوتٍ قوي:

ـ نحنُ يدك اليمنى فهذا الصيّاد الذي يتعقبك ويتابع تحركاتك ستكون نهايته على أيدينا سوف نبطش به ونضربه بيد من

حديد إن لم يتوقف عن هذا العمل الجاسوسي الدنيء الذي يمتهنه .

ورد الصادق في روية قائلاً:

ـ كم يحب بعض الناس إفساد اللحظات السعيدة التي نعيشها من حياتنا فقد استسلمت للحزن ردحاً من الزمن وعندما باغتتني نشوة الفرح لبرهةٍ حسدني عليها وأقحم فيها الألم وقال آخر :

ـ هو من صنع كل هذه اللحظات .. بشرك بالفرح ثم جاء في النهاية يريد أن يمزجه بالحزن .. علينا أن نوقفه عند حده لابد أن نلاحقه في مكان عمله وذلك عندما ينفض عنه الزبائن ونسأله أن يملكنا الحقيقة وإذا ماطل سيرى جزاء صنيعه وأيده الجميع الرأي وعادوا إلى عملهم بهمة ، أما الصادق فقد عاد إلى غرفته بعد أن أزاح عنه كتل الهم العملاقة .

****

انطوى اليوم سريعاً ليلحق بالأيام التي سبقته وأشرق الصباح بنوره الوسنان وضوءه الساطع وتفرق كلٌ إلى مكان عمله . الصيّاد لم يظفر بغنيمة اليوم حيثُ أنه لم ينصب شباكه

بالأمس وعندما ذهب في الصباح وجدها خاليه كما تركها وندب حظه ولعن الساعة التي فكر في تقديم خدمة لإنسان لا يستحقها على حد قوله وعاد إلى الشاطئ ينظر إلى زملائه في حسد وهم يوزعون الأسماك على زبائنه بسعر أضعاف ما كان يبيعهم به وأوقف قاربه على حافة الماء وتدلت أقدامه المتسخة داخل الطين وثورة من الغضب جلست بالقرب منه محتارة.

أرسل أصدقاء الصادق فرداً منهم للالتقاء بالصيّاد على إنفراد وتقصي الخبر دون أن يكشف له عن هويته وسوف يأتون من بعده وأوصوه أن يكون حذراً وفطناً وودعهم وانطلق وما أن وصل إلى هناك ورآه الصيّاد يقترب منه وقبل أن يتفوه بكلمة أو يلقي عليه التحية سأله مستفسراً :

ـ لقد رأيتك بالأمس مع أولئك المخادعين تتهامسون في المطعم لماذا أنكرتم معرفتكم بصاحب المطعم ؟

وفي اندهاش رد عليه الرسول :

ـ لم نخف عنك شيئاً ولم نقل إلا الحقيقة .

وقال الصيّاد:

استحلفك بالله أن تقول الصواب .

سأقول ولكن عِدني بأن يكون الأمر سراً بيني وبينك .

ـ أعدك بذلك .

وقال الرسول :

ـ الشخص الذي تريده معنا وحرصاً منا على سلامته أخفيناه عنك.

وقال الصيّاد :

ـ لماذا أخفيتموه ؟

وأردف قائلاً :

لم آت إلى هناك لإيذائه والتسبب له في المشاكل ، جئت لأبشره بنجاة تلك المرأة وأن إصابتها لم تكن بليغة ونجت من الموت وإذا أردت أن تتحقق من ذلك فلنذهب سوياً إلى منطقتها وتراها وجهاً لوجه . صحيح أني ضربت موعداً لصاحبكم ولما تأخر ذهبت لقضاء أمر هام يخصني ولما عُدت لم أجده.

تهلل وجه الرسول إشراقاً ثم قال :

ـ لا تتحرك من هنا سوف آتيك بعد قليل .

عاد الصيّاد إلى جلسته السابقة ولم يبرح قاربه شبرا فقد وعى الدرس السابق جيداً بينما هرول الرسول يبحث عن بقية أصدقائه ولم يذهب بعيداً وشاهدهم متجهين نحو الشاطئ في ترقب وفرد يديه يلوح لهم مستبشراً ولما رأوه توجسوا منه

خيفةً في بادئ الأمر ولكن الأفراح لم تصبر حتى يصـل إلـيهم فقد سبقته إليهم واحتضنتهم احتضانا هللوا ثم كبروا وسجدوا لله شكراً وتسابقوا إلى الشاطئ ووجدوا الصـيّاد في انتظـارهم وحياهم واعتذر للصادق عن ما بدر منه وقبل عذره عن طيب خاطر.

اليـأس

انقضى الشهر و تأهب طليق سلوى للذهاب إلى المحكمة وأن إحساسه يقول بأن شيئاً سيحدث ويـؤدي إلى تأجيـل مواعيـد الجلسة فظلت الهواجس تطارده من لحظة تحركه مـن داره وأن الكلمات التي ظل يرتبها طوال الليل تهرب منه بسـهولة وقـد حاول جاهداً أن يجد تفسيراً لهذا التناقض إلا أنه لم يفلح فهـو الشاكي ومن البـديهي أن يكـون في موقـع قـوة خاصـة وأنـه صاحب حق بيّن ولديه دليل يسـتند إليـه وفي لحظـات عديـدة يرجح موقف بنته رقية وممانعتها وموقفه المتعنت المعـاكس لهـا والذي جلب عليه كل هذه التعاسات على حد قوله .

وصل إلى هناك وجلس يراقب الداخل والخـارج مـن قاعـة المحكمة العديد من الأشخاص منهم من هو على حـق ويقاتـل من أجل استرداده ومنهم من هو على باطـل ويناضـل لأخـذ حق غيره زوراً حتى لو أدى به الأمر ليحلف الـيمين بهتانـاً لا يهمه ذلك فهو في كل الأحـوال أعمـى قلـب وبصـيرة هدفـه خداع الآخرين .

نظر إلى وجوههم جميعاً محاولاً فك شفراتها ـ هذا الرجل الأصلع ذو الوجه العبوس والذي يضع طاقيته المتسخة أعلى جبهته اللامعة يبدو أنه ظالم حقير يريد أن يستأسد ويهضم حقوق الآخرين ، وتلك المرأة التي يتدلى شعرها وتشبه في مشيتها جندي تخرج لتوه من الميدان ولم ينخرط حتى الآن في العمل العسكري مزهوة بنفسها ما هي إلا شاهدة زور كاذبة، وهذا الشيخ محدودب الظهر والذي يجلس صامتاً تعلو وجهه علامة الوقار وتطفو على تقاسيمه بسمة دائمة ما هو إلا شخص مظلوم أعانه الله على خصومه ورد له القضاء حقوقه المسلوبة ، وتلك المرأة التي تحتضن طفلتها البائسة والتي لم يتوقف نحيبها وتحاول أن تكفكف دموعها المنهمرة ما هي إلا إنسانة مغلوبة على أمرها قذف بها زوجها السكير في فوهة البئر العميقة المظلمة ولم يتلفت إليها ولا إلى فلذة كبده والتي هي قطعة من لحمه ودمه.

كثيرون يخرجون فرحين لأن القضاء أنصفهم ورد إليهم كرامتهم وهيبتهم وآخرون يخرجون وهم في قمة اليأس يسبون ويلعنون اللحظة التي وطأت فيها أقدامهم قاعة المحكمة .

أخيراً نودي على اسمه واسم خصمه وبهـذا النـداء انقطـع مسلسل قراءة الوجوه و التفـت ولم يـر أحـداً غـيره في صـالة الانتظار وأيقن أن غريمه سوف لا يأتي ولما رآه كاتـب العـدل تذكر أسألته الرتيبة ونظرته المتشائمة للحياة وعجالتـه للآتـي من المستقبل البعيد وقال يخاطبه :

ـ أين خصمك ؟

تلعثم في حديثه ثم قال:

ـ لا أدري .. لا أدري .

انتظر قليلاً إذا جاء المدعى عليه سأدخلكما مع بعـض وإن لم يأت ستحدد لك المحكمة موعـداً آخـر ثـم نُـودي علـى غـيره وهكذا إلى أن انفض الجالسون وإذا بالكاتب يأتيه بموعد جديد أخذ المكتوب ثم انسحب والغيظ يملأ قلبه وقال يخاطب نفسه:

ـ لو لم أُقدم لها المساعدة لما جنيت هذا التعب فلتذهب المـروءة إلى الجحيم كان علـيّ أن أتركهـا تشـحذ النـاس لـترى مـرارة الحرمان.

****

قال الصيّاد أمام الجميع وهو يغرز مجدافه في الوحل :

ـ لقد وعدتني يا الصادق قبل ذلك ولم توف بوعدك وها أنذا أترك عملي وأذهب في مهمة تخصك لابد أن تسلمني حسابي السابق قبل أن انطلق من جديد وأضاف :

ـ أنت تعلم بأن الزمن قد تغير وأن بوصلته التي كانت تدور ببطء تحررت من ربطتها وصارت تلف بأقصى سرعة لها ألا تلاحظ بأنه لا يوجد إنسان يعمل بلا مقابل .

همهم الصادق ثم قال متردداً :

ـ سأمنحك حسابك السابق واللاحق حال جئتني بالخبر السعيد.

وقال الصيّاد وهو يشير إلى الجميع :

ـ عليكم أن تتذكروا حديثه هذا . إذا لم يعطني ما وعد به سوف أجعله أُضحوكة بينكم .

وتقدم أحدهم وقال :

ـ إذا راوغ أو ماطل أو نكص عن وعده سأدفع عنه .

شق الصياد بقاربه عباب النهر والسعادة تعلو وجهه حيثُ أنه سيستلم حافزه الذي وعد به بعد حضوره كان شريط الذكريات ماثل أمامه بكل تفاصيله الدقيقة وهو يشاهد صورة

الصادق قبل عُدة سنوات يجلس في نفس المكان الـذي يجلـس عليه رسوله وسرواله المتسخ يتدلى أسفل جلبابه القصير ينتعل حذاء جلدي بالي تتناثر بقع من الـدماء قانيـة اللـون بصـورة عشوائية على ملابسه وهو مرتبك يتلعثم في الحديث يحثه على الإسراع.

مسحه من الحزن غطت وجهه في الحال وأزالت عنـه لحظـات الفرح التي عايشها وفي محاولة منه لتبديد هذا الغم الـذي زاره قال يحادث مرافقه :

ـ منذ متى وهو يعمل معكم ؟

تشاغل المرافق بإزاحة شوائب طفت على الإناء الـذي حـاول أن يرشف منه جرعة ماء وبعد أن قذفها في جوفه قال:

ـ وجدته يعمل قبلي وقد تعاملت معه لأكثر من سنة ولم الحظ عليه تصرف غير سـوي غـير لحظـات السـهو والشـرود الـتي يعيشهما مـن وقـت لآخـر ولم يفشـي سـره إلا بعـد زيارتـك الأخيرة لنا في المطعم وأضاف المرافق وهو يتأوه :

ـ لو باح بماضيه لما وجد فرصة عمل. وحتى الآن أنا متعجـب كيف استطاع أن يخفي عنا هذه المشكلة كل هذه المدة .

وقال الصيّاد :

ـ يبدو أنه إنسان مسالم وأن الجرم الذي أقدم عليه لم يكن إلا في لحظة لا وعي أو طيش أو غضب . فإذا كان مجرماً لاستمر في طغيانه وجبروته يكفيه شرفاً بأنه انتفض ورمى كل ألآمه النفسية خلف ظهره وثابر وكافح وعمل بجد واجتهاد وخلق لنفسه مكانه وهاهو ألآن يجني ثماره .

توقف الحديث بينهما عندما رسا القارب على الشاطئ وخرجا منه وسارا مع بعضهما . ها هي المسافة القصيرة التي تفصل المنطقة عن النهر تنطوي أمامهما كالبساط المفروش .. مجموعة من الأطفال يلعبون الكرة في حبور وأجسادهم الغضة تغطيها الأتربة وهم يتراكضون خلف الكُرة الكُل يريد أن يلحق بها ويصيب المرمى والكرة المجنونة تفر منهم ولا تريد أن تتوقف والهواء يتلاعب بها وسط ضحكاتهم وصيحاتهم المتتالية .

لم يعرهم الصياد ولا مرافقه أدنى اهتمام رغم أن نفسيهما كانت منشرحة ضاحكة تأمل أن تسحبها عقارب الزمن إلى الوراء لتعيش هذه اللحظات الهانئة .

أدركا دكان في صدر المنطقة دلفا إليه ليدلهما صاحبه على دار سلوى ولما استفسرا منه لم يجدا منه وصفاً مفيدا لم يكن بشوشاً كان وجهه عبوساً يغزوه الحقد ويسكنه الحسد حتى البضاعة

التي وضعها على أرفف دكانه كانت مُغبرة قديمة يبدو أن الزبائن هربوا منه بسبب معاملته الفظة وأخلاقه السيئة .
واصلا سيرهما إلى أن قابلتهما فتاة في ريعان شبابها تخطت العشرينات من عمرها ببضعة أشهر كانت في طريقها إلى دكان التاجر الحاقد ولما استفسرا منها قالت لهما في تعجب :
ـ أأنتما من المحكمة ؟
أجاب الصياد بالنفي ثم استطرد قائلاً :
ـ هل هي موجودة؟
ترددت لبرهة ثم قالت مندهشة :
ـ لا أعلم .. ولكن أذهبا من هذا الشارع وفي نهايته عرجا إلى اليمين وأول دار تقابلكم على اليسار هي دارها وتركتهما ودخلت أقرب بيت لعلها تريد أن تبثهم الخبر وسارا إلى أن وجدا المكان الذي أشارت به إليهما وطرقا الباب ولم يخرج إليهما أحد ولما أرادا الانصراف جاءهما جارها وهو يسير متكاسلاً يتثاءب يضع يده على فمه ليوقف رائحة أنفاسه الكريهة من الانبعاث وقال لهما في حماقة :
ـ ماذا تريدان منها ؟
ورد الصيّاد في بلاهة :

ـ لا نريد منها شيئاً . ولكن نريد أن نعـرف إن كانـت حيـة أم ميته.

ضحك الجار حتى كاد يستلقي على قفاه من شدة الضحك ثم قال للصيّاد في تهكُم :

ـ فلنفرض أنها ميتة هل سـتقوم مـن قبرهـا وتـأتي إلى دارهـا وتفتح لكما الباب ثم تعود إليه لترقد فيه ثانية ؟ .

ضحك مرافق الصيّاد هو الآخر ثم قال له :

ـ سؤالك فيه نوع من الغباء .

استشاط الصياد غضباً وقال لمرافقه :

ـ لا تنعتني بالغبي وإلا جعلت يومك هذا أسوداً كسواد قلبـك أيها الحقير.

صمت المرافق والدم يغلي في عروقه.

بعد أن هدأت الأنفاس وطابت وبعد لحظة سكون مهيبـة قـال لهما الجار:

ـ هي حية ترزق ، فقبل سنتين تعرضت لطعنة سكينة قاتلة من أحد السكيرين ولكن لله الحمد والمنة فقد نجت منها بأعجوبة .

التفـت الصـيّاد إلى مرافقـه الـذي مـا ظـل متصـلباً في مكانـه كالمسمار وقال:

ـ ألم أقل لكم أنها حية لم تمت .

وقال المرافق للجار :

ولكن أين هي الآن ؟

ورد بقوله :

لقد هربت قبل فترة استدانت مبلغ من المـال مـن طليقهـا ولم تقدر على سداده ورفع عليها دعوى قضائية ولم تجد مـن يسـد عنها الدين واختفت.

أفكار شيطانية

رجع الصيّاد ومرافقه لإبلاغ الصادق و رفاقه الخبر السعيد وسارا مع بعض فقد خلقت الملاسنات والمناوشات التي حدثت بينهما منذ قليل نوعاً من التباعد فعندما كانا وسط النهر داهمت فكرة جنونية عقل الصيّاد كاد ينفذها لولا أنه طرد ذلك الشيطان القبيح الذي كان يوسوس له في أذنه ويشجعه ويحثه ويقول له قول الناصح الأمين:

ـ أنت سباح ماهر وصيّاد متمرس يجب عليك أن تخلع الخشبة المتهالكة التي تدوس عليها بقدمك لإيقاف الماء من أن يلج داخل القارب.. أخلعها حتى يمتلأ القارب ويغرق هذا الجبان الذي يجلس قبالتك.

كيف تصمت وهو يشتمك ويسبك ويصفك بالغبي أمام الملأ؟

ثم همس في أذنه الأخرى قائلاً :

ـ لا تخف أيها الباسل الشجاع سترد لنفسك عزتها وكرامتها وتحفظ ماء وجهك.

أوقف الصيّاد التجديف ووضع يده على الخشبة ولما أراد أن ينزعها تفوه المرافق والذي لم ير فعلته المشينة متأسفاً بقوله:

ـ أعتقد بأني أخطأت في حقك . أرجو أن تسامحني . ما الـدنيا إلا لحظة نعيشها . ثم أني لا أعرفك وأنت كذلك لا تعـرفني كنا نريد أن نقدم عمل خير لأخٍ نعرفه سوياً فلماذا نتعـادى ؟ وأن الكلمة البغيضة التي خرجت مـن فمـي لم تكـن مقصـودة ولكنها جاءت عفوية.

استعاذ الصيّاد من الشيطان ورفـع يـده عـن الخشـبة في الحـال ورأى الشيطان في صورته الحقيقية وهو يولي الأدبار مسـتنكرا ما كان يود الصيّاد فعله وهمس الشيطان في اعتذار:

ـ أنا بريء مما تفعلون.

****

ضاق طليق سلوى من مواعيـد المحكمـة الممتـدة وأقسـم ألا يذهب إليها إن لم تحسم أمره هذه المرة وصحا من النـوم بـاكرا وتوجه إليها في ضجر ولما نودي على اسمه نهض بفتور ثم قال لكاتب العدل في غضب :

ـ إلى متى سيظل مسلسل هذه المواعيد الممتدة ؟

وأردف قائلاً :

ـ ألا تجدون له نهاية حتى ترتاح أعصابي المتوترة هذه ؟

رد الكاتب في برود :

ـ إذا لم يـأت خصـمك اليـوم سنسـلمك أمـر بـالقبض عليـه بواسطة الشرطة .

وقال طليق سلوى :

ـ ولكن المدعى عليه هرب .

وأضاف في حنق:

ـ الضامن موجود .

وقطع عليه الكاتب حديثه بقوله :

ـ طالما أن الضامن موجود فهـو بمثابـة المـدعى عليـه وولج إلى القاضي وجاءه بأمر قبض لسلوى وباستدعاء فوري للضـامن استلمهما منه وودعه وأنصرف.

****

وطأت أقدام الصـيّاد ومرافقـه اليابسـة ولا شـعورياً انـدفع الصادق نحوهما مستفسراً:

هل وجدتموها ؟

أهي حية أم ميتة ؟

وقال المرافق مبشراً :

ـ هي على قيد الحياة ولكننا لم نلتقيها .

وقال الصادق مستفسراً

ولماذا ؟

وقال الرسول في بهجة:

ـ علمنا من جارها أنها هربت من المنطقة . كان طليقها يطالبها بمبلغ من المال ولما ضيق عليها الخنـاق غـادرت إلى جهـة غـير معلومة .

وتدخل الصيّاد قائلاً :

ـ الآن تأكدت من صدق حديثي . هيا أعطني مـالي . وأدخـل الصادق يده في جيبه وأخرج رزمة كبيرة من أوراق البنكنوت منح الصيّاد نصفها وفرق ما تبقى على رفاقه أخذها الصيّاد ولم يعدها بل قذف بها في جيبه وأخذ الصادق بين أحضانه في فرح ثم التفت إلى مرافقه وطلب منه أن يسامحه على زلة لسانه ، ولكن لم يذكر له أبداً أن الشيطان أراد أن يغويه و انتصر عليه .

العودة

عاش الصادق أحلى أيام حياته منذ مغادرته للمنطقة قبل عدة سنوات. . الليالي التي كان يشاهدها حُبلى بالهواجس والكوابيس ما عادت تزره وروحه القابعة داخل جسده شعر بها تنطلق إلى آفاق رحبة ، أمست كما الطائر الحر الطليق الذي يرى أن كل الفضاء ملكه لا يشاركه فيه أحد يتحرك فيه بحرية وقتما شاء ويذهب أينما يريد لا تطارده الأسئلة ولا تحاصره الأوهام ولا تلاحقه الآلام .. كأنه ملك داخل مملكة فريدة وسط جزيرة بعيدة .

ما أحلى أن يتخيل الإنسان تلك الحياة ويخوض في تفصيلاتها من لحظة قيام الشمس من وسادة الزمن إلى إتكأتها في المساء منهكة متعبة بعد يوم طويل شاق وزعت فيه أشعتها على قاطني كوكب الأرض بالتساوي دون محاباة أو تحيز .

ما أروع أن يرى القلوب متصافية متعانقة متحابة والناس متكاتفة متعاونة لا حسد ولا غيرة .. الأحبة في انسجام والأعداء في وئام الخير العميم يسود والمرء بما لديه يجود .

ارتأى الصادق بأن حياته لا يكون لها طعـم ولا مـذاق إلا إذا عاد من رحلة الهروب الكبير إلى منطقته التي عـاش فيهـا ومـا يحفزه ويشده على العودة نجاة سلوى من الأذى الذي سببه لها ووضعه المالي الممتاز والخبرة الحياتية التي اكتسبها وقال وهـو يحادث نفسه :

ــ صـحيح أن اللحظـات الأولى لوصـولي سـتكون غايـة في الصعوبة العار سيظل ملتصق بي لأيام والألسن لا تتوقف عن إعادة سيناريو الأحداث من جديد .

وأضاف متسائلاً :

كيف لي تحمل لحظات المواجهة ؟

خيار صعب وتنفيذه أصعب وتبعاته قد تأتي بنتـائج وخيمـة . ولكن لابد منه . هكذا تفوه الصادق بعد حوار شاق وتحليلات مستفيضة وتدقيقات عميقة .

****

عاد طليق سلوى من المحكمة يحمـل معـه سـلاح آخـر غـير الذي مُنح لـه في السـابق وبعـد جـدال مـع نفسـه قـرر أن لا يستخدم أيٍ من السلاحين إلا عند الضـرورة يكفيـه التلـويح

بهما لطليقته إن عادت يوماً وإلى ضامنها إن نشب بينهما أي نزاع أو شجار لا سمح الله.

و رغم أن سلوى تمالكت أعصابها في الكثير من الأوقات ، ورغم صبرها اللا محدود على الآلام النفسية العنيفة التي عاشتها ، ورغم صمودها اللا متناهي وجدت نفسها تنهار ففي كثير من الأحيان كانت تغلق على نفسها الغرفة وتذرف الدموع الغزيرة وتظل طوال الليل تناجي نفسها وتخضعها لحساب عسير تعنفها ، توبخها على الأفعال الدنيئة التي قامت بها وتُرجع كل تلك الدروس القاسية إلى الامتحانات الربانية فما عليها إلا رشف المزيد من كؤوس الصبر والجلد.

عمتها لم ترحمها ولم تشفق عليها .. كانت كمن يصب الوقود على النار المشتعلة فكلما شعرت بها تتعذب ضغطت عليها لتزيدها عذاباً على عذاب .

كم تتمنى سلوى أن يحن قلبها يوماً .. كم تأمل أن تصحو يوماً وتطرب أذنيها لتحية صباحية تزيح عنها ولو ذرة من الألم الذي يتغلغل داخل جسدها .. كم تود أن يرحمها الليل ويختصر ساعاته الطوال إلى النصف. ولكن كل هذه الأماني

كالأحلام يشاهدها النائم كأنها حقائق وعندما يصحو من نومه يواجه المصير المنتظر .

وقالت تحاور نفسها:

ـ سأرحل .. من المؤكد أني سأرحل . وأترك لها مساحة مكانية و زمانية كافية لتنفث فيها سمومها .. لتفرغ فيها الحقد المكبوت داخل قلبها.

جرعات من الأمل والألم امتزجت في كيانها .. دفعات من الوجع تكورت على ذاتها .. و حزم من اليأس سكنت في أعماق فؤادها ، تأملت الدنيا ورأت كيف أنها تكون قاسية إذا ظللنا ننظر إليها من زاوية حادة ضيقة يفرد الاكتئاب فيه جناحيه ويستشري كالسرطان اللعين.

****

باع الصادق مطعمه بثمن جيد وحزم متعلقاته وقرر العودة إلى الديار وظل جُل وقته يتخيل اللحظة التي تطأ فيها أقدامه ترابها وتحرك في أحد الأيام صباحاً متوجهاً نحو المدينة التي فر منها قبل سنوات .. الأحداث التي وقعت ما برحت عقله حتى الآن الرجل الذي وجده مُكبل داخل الورشة التي تُجلب إليها

السيارات المسروقة وفك وثاقه . وسائق الشاحنة الذي أقلـهم والذي يختلق النكات . والضيف الذي تقابل معه وتوجه بعـد لقائه مباشرةً إلى المطعم الذي يجمع أهل المنطقة الباحثين عنه ما زالت كل هذه المشاهد تمر أمام عينيه كأنها حدثت للتو .

كان ينظر من خـلال نافـذة الحافلـة سـارحاً بأفكـاره بعيـداً محاولاً قراءة المستقبل الغائـب الـذي يخفـي وراءه الكـثير مـن المفاجآت والتي لا يعلمها إلا رب العز والجلال .

فجأةً أطل من بين الوجـوه الـتي مـلأت الفـراغ مـن حولـه ملامح صديق له كان يحتسي معه كؤوس الخمر اللعينة وتساءل في نفسه قائلاً :

ـ يا ترى كيف يكون حاله الآن ؟

ـ أما زال يعـيش في أيـام الجاهليـة الأولى . أم عـاد إلى رشـده واقتفى أثر الصالحين والتمس طريق الرشاد وسار عليه ؟.

لم يتوقف صدى الذكريات عنده إلا عنـدما توقفـت الحافلـة وهبط كل الركاب وحمل الصادق متاعه عل عجل وتوجه نحـو البنطون وهو متردد.. هنيهات ويلتقي مع أهل المنطقة تكدست كل ذكرياته السابقة في حيز ضـيق كـل العبـارات والكلمـات اختزلها في كلمة صغيرة اسمها (المواجهة) ها هـو الآن علـى

بعد أمتار من مكان تجمعهم أقدامه أضحت ثقيلة للغايـة هـب أحدهم من جلسته عند رؤيته وصاح في فرح :

ـ الصادق .. الصادق .

نهض الباقون وقوفاً ثم اندفعوا نحوه بسرعة هائلة كاد يهرب بعيداً عنهم ظنهم يريدون الإمساك به والانتقـام منـه . خـالهم يضمرون له الشر رغم مرور السنين . . لم يفق من صـدمته إلا عندما رأى السـرور بـادئ علـى محيـاهم ، خفـق قلبـه بقـوة وارتجفت أطرافه بعنف وتوقفت عن الحراك حتى عقله الـذي يدير أسطوانة الذكريات تعطل وأن الماضي الذي كان حاضـراً ولى في الحال وأحتل مكانه الحاضر الحاضر .

مسح وجهه ورسم على شفتيه ابتسامة ساحرة ولم تمر بضعة دقائق فإذا بسائق البنطون يطلق صافرة الرحيـل إيـذاناً بعبـور النهر وصعد جميع الركاب بما فيهم الصـادق وبـدا لـه النهـار يسير بطيئاً مفعماً بالحيوية وجلس الأهـالي حولـه يسـألونه في لهفة وشوق مسـتغربين التحـول الـذي طـرأ عليـه ولم تتوقـف أسئلتهم إلا بعد توقف البنطون على الشاطئ ساعدوه في حمل أمتعته إلى الخارج وتحرك مـوكبهم سـيراً علـى الأقـدام كانـت المنطقة لا تبعد إلا بضعة أمتار عـن المُشـرع تهافـت النـاس في

استضافته فكلٌّ يريده ضيفاً عنده إلا أنه اتخذ قراراً بالذهاب مع صديقه الذي هتف باسمه عند مقدمه نحوهم وكان له ذلك.

****

نفذت سلوى خطتها وقررت الابتعاد هي الأخرى عن بيت عمتها وخرجت منه كما تخرج الجوهرة من صدفتها وهي تجـر أقدامها بصعوبة وقـد حاولـت عمتهـا بجيتـه ثنيهـا ولكنهـا لم تتراجع عن قرارها فقد جاء ردها مُختصراً ولكنه قاتلاً وقالت لعمتها التي طلبت منها أن تظل معها:

ـ كان عليك أن تحسني معاملتي. . فات الأوان على ذلك فقـد زرعتِ في نفسي الرعب انتظري قلـيلاً فلـيس ببعيـد أن تجـني الكوابيس .

عادت إلى المنطقة ليلاً وفي نفسها الكثير من التحديات ، فإذا أدارت ظهرها للمبلغ الذي اقترضته وعفا عنها زوجها السابق فكيف لها أن تطعم نفسها ؟ ومن يثق فيها ويمنحهـا المـال مـن جديد؟

وصلت إلى البلدة متخفية لا تريد أن يسمع أحـدهم صـوتها وفتحت بـاب دارهـا بحـذر شـديد ودخلـت وقامـت بتنظيفـه

وأمست ليلتها دون أن يدري أحد بقدومها ولما أشرقت شمس الصباح شعر جارها بحركة غير اعتيادية داخل دارهـا وأتـى في الحال وصاح منادياً :

ـ من بالداخل ؟

ردت بصوتٍ خافت :

أنا سلوى .

لم يصدق إلا عندما وقف أمامهـا ورآهـا وجهـاً لوجـه وسـلم عليها بحرارة وعلا صوته وسمعه كل الجيران وتوافدوا فـرادى وجماعات وأنتشر الخبر في المنطقة بكاملها .

المواجهة

لما سمع الصادق الخبر نهـض مـن جلسـته مشـتت الأفكـار وظل تائهاً محتـارا وهـو بـين المبـتهج والخـائف انتبـه صـديقه للارتباك الذي غزاه وقال متضامناً معه :

ـ حانت ساعة المواجهة . ولكني أوصيك بأن لا تجزع أترك لي كل الترتيبات سوف أخرجك من هذا المأزق بدهاء كما يخـرج الصوص من البيضة .

أما طليق سلوى فقد سر سروراً عظيما لما سمـع النبـأ وقـال يحادث نفسه في حبور:

ـ كل الخفافيش الغائبة حضرت دنت ساعة الانتقام ولكن عليّ أن لا أتعجل فكل شيء بأوانه .

توجـه صـديق الصـادق إلى دار سـلوى لاسـتطلاع الأمـر وعندما وصل إلى هناك وسلم عليهـا وجلـس عنـدها لـبعض الوقت تأكد له بأنها لا تحمل في قلبهـا ذرة غضـب أو ضـغينة وقد أكدت له بأن الذي حدث بينها والصادق لم يكن إلا هفوة نفذها الصادق في لحظة طيش بإيعاز من الشيطان وأنهـا محـت كل ذلك من ذاكرتها وفتحت صفحة جديدة ناصـعة البيـاض

كتبت فيها الصفح والتسامح والمصالحة مع كل من أخطأ في حقها أو أخطأت في حقه .

عاد صديق الصادق إليه وروى له ما سمع وكانت لفته بارعة أن هب الصادق من جلسته وذهب إليها من فوره واستقبلته أروع استقبال وتبادلا النوادر والطرائف في جو بديع سادته الضحكات إنها في قمة السعادة الآن ولا تحد رغبتها حدود أحاسيسها التائهة الباحثة عن مرفأ آمن تستقر فيه على وشك أن تجده ولما أعاد لها الصادق شريط ما حدث بينهما شردت ببصرها بعيداً كمن يبحث عن شيء ضاع منه ثم قالت في استسلام :

ـ أنا لا أريد منك شيئاً . يكفيني أن الحادثة غيرت مجرى حياتي كلياً ولولا ذلك لكنت غارقة في بحر الظلمات وأضافت ومسحة من الحزن غطت وجهها الوضاء :

ـ بعد كل هذه السنين خرجت من الدنيا خالية الوفاض لا أستطيع حتى إطعام نفسي وانهمرت الدموع من مقلتيها مدرارا ورغم أنها حاولت السيطرة عليها وإخفاءها لكنها لم تتمكن.

تأثر الصادق مما شاهده ها هي المرأة الجبارة العتيـدة تـركن للهزيمة وتستسلم لها وجلـس معهـا لـبعض الوقـت وودعهـا وغادر .

****

استيقظت سلوى صباح اليوم التالي على صوت طرق عنيـف على باب دارها ولما خرجـت لتقصـي الأمـر تفاجـأت بشـيخ المنطقة ومعه شرطي وبعد أن حياها قال للشرطي :

ـ هذه هي .

وقال الشرطي في صرامة :

ـ أنتِ مطلوبة لدينا بموجب إذن القبض هذا وأشـار بـه إليهـا دون أن يطلعها على محتواه واستطرد قائلاً :

ـ لقد أرسلنا في طلبك نداء تلو الآخر ولكنكِ لم تستجبي لأمر المحكمة ووضع في يدها الأصفاد وقبل أن ينطلق قالت:

ـ دعني أبدل ملابسي وآتيك في الحال . إلا أن الشرطي لم يترك لها مساحة لتتحاور معه وجرها خلفه ذليلة .

ها هي المخاوف التي تنبأت بها قد أصبحت واقع لا مناص منه .. وها هي الزنازين التي تخشى دخولها قاب قوسين أو أدنى من أن تلج فيها .

اسودت الدنيا أمام عينيها ولم تعد ترى شيئاً وقالت تناجي نفسها في اضطراب :

ـ خرجت من نار عمتي المستعرة إلى نار أخرى لا أعلم مدى عمقها .

وأضافت في ذهول :

ـ رحلة الهروب الكبير التي انتهجتها لم تفدني وأن الزمن الغدار الذي ظننته حليفي طوال هذه الفترة لم يكن إلا متربصاً بي وناصباً شباكه حولي .

لم تمض إلا فترة وجيزة وأنتشر الخبر . كثيرون هللوا عندما سمعوا أنها اقتيدت مُصفدة إلى السجن ، قلة هم الذين تضامنوا معها واستنكروا التصرف الذي أقدم عليه طليقها وحُجتِهم أن يمهلها فترة لتسدد ما عليها خاصة وأن بينهم بنت فمن غير المعقول أن يرمي والدتها في السجن ويريدها أن تطيعه وتحترمه بالطبع ستتمرد عليه وتكرهه حتى لو كانت لا تؤيد تصرفات والدتها الأرعن .

الساعة العاشرة صباحاً تأهب الصادق وصديقه لزيارة بعض الأصدقاء وبالفعل خرجا من الدار ولما وصلا إلى محل عمله في السوق لم يجداه وأخبرهم جاره بأنه ذهب إلى المحكمة ولما استفسرا منه عن سبب ذهابه إلى هناك أفادهم بأن سلوى قُبض عليها هذا الصباح وسرد لهما القصة كاملة ولم يتأخرا وذهبا إلى هناك وسألا عنها وأفادوهم بأنها موقوفة ولا تخرج إلا إذا دفعت ما عليها استأذنا من الشرطي لرؤيتها وأُذن لهم .

بدت مستسلمة تماماً تائهة تقاسيم وجهها تحكي قصصاً طويلة لمن يريد قراءته البؤس ، الذل ، المعاناة ، الألم ، الإحباط ، القلق ، الشرود الذهني والاكتئاب كلها انصهرت وامتزجت بمستقبل قاتم لا بصيص أمل فيه .

تحرك ضمير الصادق النائم وتحاور مع نفسه قبل أن يلقي عليها التحية قائلاً :

ـ ليس من العدل ولا المروءة أن تتنازل عن قضيتها ضدي بكل سهولة وأتركها تتعذب ولا أحد يقف معها .

وأضاف :

ـ وليس من الشهامة أن يرمـي بهـا غريمهـا بـين فكـي تمسـاح عملاق وأنا انظر إليها وهي تتلوى وهو يتلذذ بالتهامها ونطـق في شجاعة موجهاً حديثه إليها :
ـ سوف تخرجي مـن هنـا الآن . لا تحملـي أي هـم طالمـا أنـا موجود وذهب ليستفسر عن إجراءات الضمانة ولكنهم أفادوه بأنه لا يستطيع أن يضمنها الخيار الوحيد المتـاح أمامـه هـو أن يدفع المبلغ نيابة عنها .

لا يهمه في تلك اللحظة كم سيدفع ! الجنيه الواحد والمليـار جنيه سيان الأرقام لا قيمة لهـا والعملـة لا تسـاوي أكثـر مـن أوراق ملونة مزخرفة بنقوش متعددة .

نادت عليه قبل أن ينطلق بعيداً عنهـا ودسـت في يـده ورقـة وقالت في استعطاف :
ـ أرجوك توسل للقاضي وقُل له أن الشاكي كان زوجي سابقاً وهذه هي القسيمة التي فرقت بيننا وأضافت :
ـ استحلفه بالله أن يمنحني فرصة أخيرة لأخرج وأسدد له .
أخذ الصـادق القسـيمة ووضـعها في جيبـه بعنايـة وذهـب إلى القاعة وأثناء سيره في ردهات المحكمة تصـادف مـرور طليقهـا

وهو يختال كالطاؤوس وناداه الصادق ولكنه لم يستجب وسار خلفه إلا أنه لم يتوقف .

عاد الصادق وولج إلى قاعة المحكمة وبعد أن ألقى بالتحية على أحد القضاة قال مستفسراً:

ـ أريد أن أسدد المبلغ المطلوب من سلوى الموقوفة لـديكم مـا هي الإجراءات ؟

طلب القاضي من الشـرطي أن ينـادي علـى الشـاكي قبـل أن يتوارى فإذا به يستجيب ويعود ونطق القاضي قائلاً :

ـ جاء فاعل خير ويريد أن يسدد لك مالـك الـذي تطلبـه مـن زوجتك السابقة وصاح طليقها في غبن قائلاً :

ـ هذا مُجرم سكير أراد أن يقتلها يوماً وله قضية عندكم ويأتي الآن ويريد أن يدفع عنها .

طرق القاضي على الطاولة بعنف ثم قال :

ـ أما فيما يتعلق بقضيتهما السـابقة فهـذا شـأن يخصـهما فقـد تنازلت عنها بعد أن تعافت ، وبخصوص الجانب الـذي يخـص المحكمة فقد انتهى بالتقادم أي بمرور السنين .

وأضاف :

ـ أتريد منها شيئاً آخر غير المال؟

رد بالنفي .

وقال القاضي:

ـ خذ مالك ولا تتطاول علـى المحكمـة وإلا أخرجـت المُتهمـة ووضعتك مكانها .

وأخذ نقوده وبعد أن عدها وضعها في جيبه .

نظر إليه القاضي ملياً ثم قال:

ـ هل لك شيء آخر تطالبها به ؟

قال : لا

إذن وقع على هذه المخالصة وبصّم وأرجو أن لا تتعـرض لهـا أبداً وعندما استدار ليخرج قال له الصادق في استفزاز :

ـ لماذا لا تصبر قليلاً لتشهد على ما نود فعله ؟

وأخرج القسيمة المصفوفة من جيبه ثم قال للقاضي في أدب :

ـ وجدت نفسي وحيـداً في هـذه الـدنيا لا أنـيس ولا جلـيس يشاطرني الوحدة وينسيني الحرمـان ، تخلـي عـني كـل النـاس عندما كنت في أمـس الحاجـة إلـيهم ، وأن هـذه المسـجونة لا تختلف عني كثيراً وهي أكثر معاناة مني وقد أكون أفضـل منهـا لأني أستنشق نسمات الحرية فهل جمعت بـين قلبينـا وربطهمـا برباط مقدس على كتاب الله وسُنة رسوله .

هاج طليقها وماج ثم قال للقاضي :

ـ أنا لا أوافق على هذه الزيجة وإن زوجتهما يعني ذلـك بأنـك متواطأ معهما ولم يدفع هذا العربيد المال لي إلا من أجل هـذا الهدف الدنيء .

قال له القاضي في حَزم :

ـ من أنت حتى توافق أو ترفض زواجهما ؟

وأردف القاضي في غضب:

ـ ألم تمنحها حريتها بنفسك ؟

رد بالإيجاب .

وأضاف القاضي متسائلاً :

ـ عندما منحتها القسيمة هل كنت معك ؟

قال :

ـ لا .

لماذا تصفني بالمتواطأ ؟

طأطأ رأسه إلى الأرض ثم قال :

ـ سوف أرد له ماله مقابل ألا يتزوجها .

ألم توقع أمامي قبل قليل. وأقررت بأنك لا تريد منها شيء ؟

قال: نعم .

يجب أن تعلم بأني موافق على هذه الزيجة طالما أن القسيمة موجودة وصحيحة وأن المحكمة هي ولية أمر للزوجة وأن صديق الزوج سيكون وكيلاً عنه .
ونادى على الشرطي وطلب منه أن يخرجها من السجن وأن يأتي بها إليه في الحال ولما أخبرها الشرطي بأن الصادق دفع عنها كامل المبلغ لم تصدق وزاد من صدمتها ودهشتها بأن زف لها خبر طلب الصادق الزواج منها تخيلت الذي يحدث أمامها مسرحية هزلية مفبركة وعندما سألها القاضي رأيها في الزواج من الصادق تلعثمت في الحديث ولم تستطع أن تنطق بكلمة ولكن إنبجست من شفتيها ابتسامة عريضة جعلت القاضي يرسل ضحكته المتقطعة وقال ممازحاً:
ـ حتى الفار لما ذُكر له موضوع الزواج تبسم كناية عن القبول والرضا
ولم تمر سوى دقائق معدودات وانتهت مراسم الزواج وأعلنهما القاضي زوجاً وزوجة وسلمهما عقد الزواج بعد أن مهره بتوقيعه ووضع عليه ختمه البارز.
وأمام دهشة طليقها وتعجبه مما يحدث قال القاضي للشرطي :

ـ ضع الأصفاد في يديّ هذا الرجل وزج به في السجن وذلـك لأنه أهان كرامتي ووصفني بالمتواطأ المنحاز وآمل أن لا تخرجـه أبداً إلا إذا طلبت منك ذلك.

ســار الزوجــان جنبــاً إلى جنــب وســط صــيحات وهتافــات الحاضرين وانطلقت الزغاريد من داخل قاعة المحكمة كترانـيم جزلة فالشرطي الذي عاش كل الأحداث الدرامية تفاعل مـع المشهد الختامي ولم يتمالك نفسه من شدة الحماس الـذي زاره وسحب سلاحه وأطلـق مجموعـات مـن الرصـاص في الهـواء الطلق ولسوء حظه أمر القاضي زميل الشـرطي أن يأخـذ منـه السلاح ويقبض عليـه ويرمـي بـه في السـجن ليلحـق بطليـق سلوى المتهور الذي سبقه إليه منذ لحظات وعلى يديه.

النصر المؤزر

استقبلت البلدة الخبر في لحظات وتوافد الجميع إلى بيت سلوى ليباركوا لها . أما الصادق فقد تصدر المجلس في دار سلوى وأصبح رجل البيت الآمر والناهي .

أتت أيام التهنئة سريعة فكل يوم كأنه يجر أياماً من المستقبل البعيد يستدينها ويملكها نفسه . ما عادت هناك ليالي قاسية تتراءى للزوجين الهانئين. سلوى تظن بأنها أكثر سعادة لأنها نهلت من بحر الأماني العذب والصادق يعتقد بأنه يسبح فيه . الأحلام التي كانت تطوف بخاطريهما أصبحت واقعاً ملموساً والمستحيل الذي تحطمت على صخرته العملاقة آمالهما أصبحت ممكناً .

استيقظ الصادق صباح أحد الأيام باكراً ليبحث عن موقع يستأجره ليقيم عليه مطعماً عملاقاً يضع فيه عصارة خبرته ومهارته التي اكتسبها وليؤمن له ولنصف قلبه الآخر حياة كريمة وترك الأماني نائمة بجوار زوجته ونسمات الصباح المنعشة تغزو جسدها وتتسلل إلى قلبها خلسةً لتغسل هموم الماضي وأدرانه .

حتى الضوء ولج من خلال النافذة ودغـدغ أجفانهـا الناعسـة وفتحت عينيها المترعة بالنعاس وحيته بأريحية وتبسم في وجهها الطلق وخرج مسرعاً تغمره نشوة عارمة .

****

أشار أحدهم على الصادق بالمكان الـذي سـبق وأن أرادت سلوى تنفيذ مشروعها الفاشل عليـه والـذي كلفهـا التعاسـة والعناء ولما هاتف صاحبه من خلال التلفون المدون على بابـه المتهالك جاء صوته قاسياً ورده مؤلماً ومما قال:

ـ لا أتحرك مـن داري إلا إذا تأكـدت بأنـك جـاد وصـادق في مسعاك ويجب أن تعلم بأني لا أقبل بأقل من إيجار ستة أشـهر مُقدما .

وقال الصادق متعجباً :

ـ يا لها من عقلية متحجـرة سـنوات والمكـان مغلـق وصـاحبه كالصنم لا يتزحزح عن رأيه الهدام .

طمأنه الصادق بأنه سيعطيه ما يريد عليه أن يأتي حتـى يبرمـا العقد وكان لـه ذلـك ولم يمـر وقـت طويـل وتقـابلا وحـدث الاتفاق .

عاد الصادق إلى داره وكان المفتاح بين يديه ولما دخل على (سلوى حبه الأول والأخير) كما يقول و أشار إليها بالمفتاح نظرت إليه ثم قالت :

ـ أخاف أن ينفجر قلبي من شدة المفاجآت التي ولجت إليه .. لم يعد يحتمل هذا السيل الجارف من الأفراح تحسست جانبها الأيسر لبرهة وأضافت :

ـ أعتقد بأن هناك حزمة من السعادة لم تجد لها مكان شاغر تستقر فيه داخل قلبي .. ها هي أصابعي مُمسكة بها .. ما زالت واقفة عند بابه ولم يؤذن لها بالدخول .. قيل لها بارحي مكانك وعودي لاحقاً .. لكنها مُصَرة على الانتظار .

وقال الصادق وهو يضحك من قولها:

ـ خصصت جزء من المطعم لتقيمي عليه مشروعك الذي حلمتِ به .

حدقت في وجهه الباسم وعاد إليها شريط المآسي الباكي استدارت ورأت الأيام الغابرة بدقائقها وساعاتها المُرة فكأنما الزمن الضحوك الذي كان يسحب من رصيد المستقبل المشرق قبل قليل صار مُطالباً برد الدين .

اقترب منها الصادق وتفاجأ بالوجوم غطى وجهها والحـزن قد ألقى بظلاله على عيونها الحلوة وقال معتذراً :

ـ آسف إذا هيجت فيك ذكري الأيام الموجعات خلتك قـذفتِ بها وإلى الأبد في بحر الماضي المظلم العميق . خنقتهـا العـبرات وصمتت ولم تقل شيء بعد ذلك .

قام الصادق بإعادة ترميم المحل في همة ونشـاط وسـافر إلى أصدقائه الذين تركهم يعملون في المطعم السابق وأغراهم بالمال فأتوا معه ولما أفتتح المطعم أصبح حديث المنطقة بأكملـها فـلا ترى شخصان يتحاوران إلا وجاءت سـيرة الصـادق وزوجتـه سلوى علي لسانهما .

لم يعـد أحـداً يـذكر الإخفاقـات الـتي حـدثت في حياتهمـا والمصائب التي تكالبت عليهما . الكل يصـورهما علـى أنهمـا ملكان هبطـا مـن السـماء وعاشـا بـين النـاس علـى كوكـب الأرض .

لم تنس سلوى بنتها بل ذهبت إليها في دار والدها و طلبت منها أن تأتي لتسكن بينهما إلى أن يخرج والدها من السجن وعندما رفضت تركتها كما ترك سيدنا نوح ابنه كنعان ليواجـه المـوت غرقاً عندما رفض أن يركب معهم في السفينة .

صباح اليوم التالي نبذت سلوى ذكرياتها الأليمة وقذفت بكتابها الضخم بعيداً وتوجهت حيثُ يعمل زوجها ووجدته قد وفر لها كل شيء حتى الفتيات اللائي كانت تحلم بإدارتهن وجدتهن يزاولن عملهن في إخلاص ولما رأينها توافدن لاستقبالها والتفنن حولها وتقدمت إحداهن وأعطتها المقص وطلبت منها أن تقص الشريط قبل أن تدخل ففعلت . ولم تصدق عيناها عندما رأت كل الأشياء أمامها فكأنما قرأ الصادق أفكارها وترجمها حرفياً ، حتى الكرسي الدوار أخذ مكانه في ركن المحل ولما جلست عليه ودارت به نصف دورة تسابقت ذرات من السعادة وهبطت على قلبها من جديد وبدأ ينابيع الأماني الحلوة يتدفق بغزارة ، ووجه الطبيعة المشرق يتلألأ بمهارة ، وشمس أحلام اليقظة الوردية أضحت أكثر سطوعاً ومواثيق الحب الموقعة بمداد همس المشاعر لاحت على صفحات دفاتر الجوى والابتسامات الندية المضمخة بنفحات الرياض العسجدية عطرت شفاهها ، واللحظات الحالمة الرومانسية فردت صفحاتها النرجسية وتناثرت الضحكات العذبة وولجت إلى مغارة روحها الحالمة وزينت ثغرها الباسم الندي ، و سفن الوداع استأنفت رحلة اللا عودة وربما مكثت إلى الأبد .. إلى الأبد . ... النهاية .

المحتويات



محمد نور عبدالله رمضان

* مواليد قرية الشلال ـ ولاية سنار.
* تخرج في المعهد الفني ـ القاهرة ـ جمهورية مصرالعربية.
* عمل معلماً في أنجمينا ـ جمهورية تشاد.
* نال العديد من الشهادات من منظمة (الإيسسكو) والإتحاد العالمي للمدارس العربية الدولية ومنظمة الدعوة الإسلامية في طرق التدريس في أنجمينا.
* عمل محاسباً في المملكة العربية السعودية لعُدة شركات.
* شارك بالعديد من الأعمال الروائية في المسابقات المحلية والدولية.
* له الكثير من المقالات والقصص القصيرة في الصحف السعودية والكويتية.

ـ صدرت له في المملكة العربية السعودية:

* دموع وأفراح (رواية) 2006

ـ صدرت له في السودان:

* نظرات بائسة (رواية) 2009
* أيام خالدة (رواية) 2010
* الهروب وراء الظلام (رواية) 2013

ـ له ثلاثة أعمال تحت الطبع:

* الفتاة المشاغبة (رواية) 2012
* الضياع (رواية) 2013
* أشواق حائرة (رواية) 2013
* همسات العتاب (مجموعة قصصية) 2013

نُشر جزء منها في صحيفة الهدف (دولة الكويت)

الهروب وراء الظلام

رواية

محمد نور عبدالله رمضان



